

# الباب الثاني والعشرون

## الإقطاع والفروسية

٦٠٠ - ١٢٠٠

### الفصل الأول

#### نشأة الإقطاع

تجمعت في الستة القرون التي أعقبت موث جستنيان ظروف عجيبة كان لها أثر بطيء في التغيير الأساسي الذي حدث في الحياة الاقتصادية في عالم أوروبا الغربية .

فقد اجتمعت بعض الظروف التي أشرنا إليها من قبل ومهدت السبيل إلى عهد الإقطاع . ذلك أنه لما أصبحت مدن إيطاليا وغالة غير آمنة على نفسها أثناء الغارات الألمانية ، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بأتباعهم من الزراع ، وأمر من « الموالي » ، وأعوان عسكريين . وزاد حركة التفرق التي تهدف إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة في بلاد الريف قيام الأديرة التي كان رهبانها يفلحون الأرض ويشغلون ببعض الصناعات اليدوية ؛ ولم تعد الطرق صالحة للاحتفاظ بوسائل النقل وتبادل المتاجر لما أصابها من التخريب بسبب الحروب والإهمال من جراء الفقر . ونقصت إيرادات الدواية بسبب كساد التجارة واضمحلال الصناعة ، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والملك والتجارة . واضطرت قصور الأعيان في الريف بسبب العقبات القائمة في سبيل التجارة أن تسعى للاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية ، فأضحى الكثير من الأدوات التي كانت تشتري من المدن تصنع في الضياع الكبيرة منذ

القرن الثالث الميلادي . وتصف لنا رسائل سيدونيوس أبولينارس في القرن الخامس سادة الريف وهم يعيشون عيشة الترف وسط ضياع رحبة يفلحها مستأجرون نصف مستعبدين ، وقد أضحوا من ذلك الوقت البعيد يكونون أرسقراطية إقطاعية لها محاكمها الخاصة<sup>(١)</sup> وجيوشها<sup>(٢)</sup> ولا يختلفون عن البارونات في العهود المقلدة إلا في قدرتهم على القيادة .

وكانت العوامل التي مهدت السبيل إلى قيام الإقطاع بين القرنين الثالث والسادس هي بعينها التي أقامته بين القرنين السادس والتاسع ؛ ذلك أن الملوك المروثنجيين والكارولنجيين أخذوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض ؛ وأضحت هذه الإقطاعات في القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك الأسرة الكارولنجية . وأعدت غارات المسلمين ، والشماليين ، والمجر في القرن الثامن والتاسع والعاشر نتائج الغارات الألمانية التي حدثت قبلها بستة قرون وزادتها قوة : فقد عجزت الحكومات المركزية عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها ، وأقام الأسقف أو البارون المحلي نظاماً في مقاطعته وهيئة للدفاع عنها ، وظل محتفظاً بقوته ومحاكمه الخاصة . وإذا كان معظم المغيرين فرساناً فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كل منهم جواداً ، وأوضحى الفرسان لهذا السبب أهم من المشاة ، وهكذا نشأ في فرنسا ، وإنجلترا في عهد النورمان ، وفي أسبانيا المسيحية ، طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، كما نشأت في رومة القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعامّة . ولم ير الشعب حرجاً في هذه التطورات ، فقد كانوا يتطلعون إلى وجود نظام عسكري يتولى حمايتهم مما يحيط بهم من الرعب ، ومن الهجمات التي قد تنقض عليهم في أي وقت كان ، ولهذا الغرض كانوا يبنون بيوتهم أقرب ما تكون إلى قصر البارون المنيع أو الدير الحصين ،

وم يرددوا في تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية أو دوق يستطيع قيادتهم . وخلق بنا أن ندرك ما عساه يتولاهم من الرعب لو أنهم فهموا خضوعهم هذا ؛ فهام أولاء رجال أحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم ، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قوى ويطالبون إليه في نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم ؛ وكان من عادة البارون في هذه الأحوال أن يقطع « رجلاًه » مساحة من الأرض يحتفظ بها بعقد يستطيع واهبها أن يلغيه في أى وقت يشاء ، وقد أضحي هذا التملك المزرع الصورة المألوفة لامتلاك رقيق الأرض إياها ، فكان الإقطاع بمقتضاه هو خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية إلى رجل أسمى منه منزلة في مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية .

وليس من المستطاع تعريف الإقطاع تعريفاً جامعاً مانعاً ، فقد كانت له صور تبلغ المائة عدا في مختلف الأزمنة والأمكنة . وكان منشأه في إيطاليا وألمانيا ، ولكن تطوره الخاص به إنما حدث في فرنسا . ولعله بدأ في بريطانيا بتحويل البريطانيين إلى أرقاء أرض على أيدي الفاتحين الأنجليسكسون (٣) ، ولكن معظم خواصه في تلك البلاد قد جاء بها الغاليون من نورمندية ، ولم ينضج هذا النظام النضج الكامل في شمالي إيطاليا أو في أسبانيا المسيحية ، ولذلك لم يستطع كبار الملاك في الإمبراطورية الشرقية أن يثبتوا دعائم استقلالهم العسكرى والقضائى ، أو إقامة نظام الولاء المتدرج الذى بدأ في الغرب كأنه من مستلزمات الإقطاع . وبقيت أصقاع كبيرة من أوروبا الزراعية خارج نطاق النظام الإقطاعى : كالرعاة وأصحاب الضياع الخاصة بتربية الماشية في بلاد البلقان ، وشرقي إيطاليا ، وأسبانيا ؛ وزراع الكروم في غربي ألمانيا ، وجنوبي فرنسا ؛ والزراع الأشداء في السويد والنرويج ؛ وطلائع التيويون فيما وراء نهر الإلب ؛ وأهل جبال الكريات ،

والألب ، والأينين ، والبرانس . ذلك أنه لم يكن يتوقع أن تكون لقارة  
كأوروبا ، تختلف أجزاؤها بعضها عن بعض أشد الاختلاف في طبيعة أرضها  
وأحوالها الاقتصادية ، نظام اقتصادى موحد . وحتى في داخل نظام الإقطاع  
نفسه كانت ظروف التعاقد. ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف الأمم والملوك ،  
والأزمات المختلفة ؛ ولهذا فإن البحث التحليلى الذى سنصفه فيما بعد ينطبق  
أكثر ما ينطبق على فرنسا وإنجلترا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر .

## الفصل الثاني

### التنظيم الإقطاعي

#### ١- العبد

كان المجتمع في تلك البلاد والأوقات يتكون من الأحرار ، ورقيق الأرض ، والعبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ، ورجال الدين ، والجنود النظاميين ، وأصحاب المهن ، ومعظم التجار والصناع ، والفلاحين الذين يملكون أرضهم ولا يلتزمون إلا بالقليل ، أو لا يلتزمون بشيء على الإطلاق ، لأي سيد إقطاعي ، ولا يستأجرونها من سيد نظير إيجار نقدي . وكان أولئك الفلاحون الملاك يكونون أربعة في المائة من الزراع بإنجلترا في القرن الحادي عشر ؛ وكانوا أكثر من هذا عدداً في غربي ألمانيا ، وشمالي إيطاليا ، وجنوبي فرنسا . والراجح أنهم كانوا يكونون ربع الزراع في أوروبا الغربية (٤) .

ونقص عدد العبيد بازدياد عدد أرقاء الأرض ؛ وكان معظم عملهم في إنجلترا في القرن الثاني عشر مقصوراً على الخدمة المنزلية ، ولا يكاد يكون لهم وجود أرض فرنسا الواقعة شمال نهر اللوار ، وأخذ عددهم يزداد في ألمانيا في القرن العاشر ، حين لم يكن الناس يتخرجون أو يوثنهم ضميرهم من القبض على الصقالبة الوثنيين ليقوموا بالأعمال اليدوية الحقيرة في الضياع الألمانية ، أو لبيعوهم البلاد الإسلامية أو البيزنطية . كذلك كان التجار الصقالبة يختطفون المسلمين أو اليونان من الأراضي الممتدة على شواطئ البحر الأسود ، وسواحل آسيا الغربية ، وإفريقية الشمالية ، لبيعوهم للعمل في الزراعة أو الخدمة المنزلية ، أو خصياناً ، أو سراري ، أو عاهرات في بلاد الإسلام والمسيحية . وراجت تجارة العبيد في إيطاليا

بنوع خاص ، وأكبر الظن أن منشأ ذلك هو قربها من البلاد الإسلامية حيث كان في وسع التجار أن يختطفوهم منها وهم مرتاحو الضمير ، فقد كان يلوح لهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم على البلاد المسيحية .

وقد نخل إلى الناس ، وفيهم رجال الأخلاق الشرفاء ، أن هذا النظام الذي ظل قائماً من بداية التاريخ المعروف نظام أبدي لاغنى عنه . ولسنا ننكر أن البابا جريجورى الأول أعتق اثنين من عبيده ، ونطق في هذه المناسبة بعبارات خليقة بالإعجاب عما للناس جميعاً من حق طبيعي في الحرية<sup>(٦)</sup> ، ولكنه مع ذلك ظل يستخدم مئات العبيد في الضياع البابوية<sup>(٧)</sup> ، ويوافق على القوانين التي تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة أو أن يتزوجوا من المسيحيات الخرائ<sup>(٨)</sup> . وقد حرمت الكنيسة بيع الأسرى المسيحيين إلى المسلمين ، ولكنها أباحت استرقاق المسلمين والأوربيين الذين لم يعتنقوا الدين المسيحي . وكان آلاف من الأسرى الصقالبة أو المسلمين يوزعون عبيداً على الأديرة ، وظل الاسترقاق قائماً في أراضي الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادى عشر<sup>(٩)</sup> ، وكان القانون الكنسى يقدر ثروة أراضي الكنيسة في بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد لا بقدر ما تساويه من المال ، فقد كان يعد العبد سلعة من السلع كما يعده القانون الزمنى سواء بسواء ؛ وحرّم على عبيد الكنائس أن يوصوا لأحد بأملآكهم ، وقرر أن ما قد يكون لهم وقت وفاتهم من مال مدخر يوثل إلى الكنيسة<sup>(١٠)</sup> ؛ وقد أوصى كبير أساقفة نربونة في عام ١١٤٩ بعبيده المسلمين إلى أسقف بيزير Béziers<sup>(١١)</sup> . وكان القديس تومس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم ، وأنه وسيلة اقتصادية في عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليتمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم<sup>(١٢)</sup> . وكانت هذه الآراء متفقة مع أقوال أرسطو ، وموائمة لروح عصرها . وكانت القاعدة المقررة في الكنيسة والتي تنص على أن أملاكها لا يمكن النزول عنها إلا بقيمتها الكاملة في السوق<sup>(١٣)</sup> ، كانت هذه القاعدة شراً على

عبيدها وأرقاء أرضها . فقد جعلت عتق العبيد والأرقاء في بعض الأحيان أصعب في أملاك الكنيسة منه في أملاك غيرها (١٤) . غير أن الكنيسة مع هذا نطت خطوات متزايدة في تقييد تجارة الرقيق ، وذلك بتحريم استرقاق المسيحيين في الوقت الذي كانت المسيحية سريعة الانتشار .

ولم يكن اضمحلال نظام الاسترقاق ناشئاً عن ارتقاء الأخلاق ، بل كان نتيجة تطورات اقتصادية . فقد تبين أن الإنتاج الذي يؤدي إليه القسر الجسدي المباشر أقل ربحاً وأشد صعوبة من الإنتاج الذي يكون الحافز عليه هو الرغبة في التملك . ولقد ظل الاسترقاق قائماً ، وكانت كلمة *Servus* اللاتينية تطلق على العبد وعلى رقيق الأرض ، ولكن هذا اللفظ تطور مع الزمن واستحال إلى كلمة *serf* لرقيق الأرض ، كما تطورت كلمة *villein* ومعناها رقيق الأرض فأصبحت *villain* ومعناها الآن « وغد » ، وكما تطورت كلمة *Slav* ومعناها صقلبي إلى كلمة *Slave* أي العبد . ولقد كان رقيق الأرض لا العبد هو الذي يصنع الخبز لعالم العصور الوسطى .

## ٢ - رقيق الأرض

الأصل في رقيق الأرض أنه رجل يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون يوجرها له طول حياته ويبسط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدي له أجراً لها سنوياً من الغلات أو العمل أو المال . وكان في وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء (١٥) ، وإذا مات لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضائه . وكان من حق هذا المالك في فرنسا أن يبيع الرقيق مستقلاً عن الأرض بثمن يعادل أربعين شلناً (حوالي ٤٠٠ ؟ ريال أمريكي) ؛ وكان مالكة أحياناً يبيعه ( أي أن يبيع عمله ) مجزئاً بعضه لشخص وبعضه لآخر ؛ وكان في وسع هذا الرقيق في فرنسا أن يخل العقد الإقطاعي إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده ؛ أما في إنجلترا فقد حرم من هذا الحق - حق مغادرة الأرض - وكان الذين يفرون

من أرقاء الأرض في العصور الوسطى يعاد القبض عليهم بنفس الصرامة التي يعاد بها القبض على العبيد في هذه الأيام .

وكانت الواجبات الإقطاعية التي يؤديها رقيق الأرض للمالكها متعددة مختلفة الأنواع ، وما من شك في أن تذكرها وحده كان يحتاج إلى بعض الذكاء . ( ١ ) كان يؤدي في العام ثلاث ضرائب نقدية . ( ١ ) فرضة ( ضريبة الرؤوس ) وهي ضريبة صغيرة للحكومة عن طريق المالك ( ب ) وإيجاراً قليلاً ( ج ) ونفقة يقررها المالك كما يهوى وتؤدي إليه مرة أو أكثر من مرة في العام ( ٢ ) وكان يؤدي للمالك كل عام جزءاً من محصوله وماشيتته ، تبلغ عادة عشرها . ( ٣ ) وكان عليه أن يعمل عند المالك كثيراً من أيام السنة مسخراً من غير أجر ؛ وكان هذا النوع من الواجبات ميراثاً انحدر من النظم الاقتصادية القديمة ، حين كان الفلاحون مجتمعين يؤديون بعض الأعمال العامة كتقطيع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وشق القنوات ، وإقامة الجسور والحواجز ، بوصفها فرضاً واجباً عليهم للمجتمع أو للمالك . وكان بعض الملاك يتطلبون من الرقيق أن يعملوا عندهم ثلاثة أيام كل أسبوع في معظم السنة ، وأربعة أيام أو خمسة كل أسبوع في موسم الحرث أو الحصاد ؛ وكان من حقهم أن يطلبوا عند الضرورة عدة أيام أخرى لا يؤديون عنها إلا واجبات الطعام . ولم تكن هذه السخرة تفرض إلا على فرد واحد من الذكور في كل أسرة ( ٤ ) وكان على رقيق الأرض أن يطحن حبوبه ويخبز خبزه ، ويصنع جعته ، ويعصر عنبه في مصنع المالك ، أو تنوره ، أو خابيته ، أو معصرته ، وأن يؤدي له في نظير كل عمل من هذه الأعمال أجراً قليلاً ( ٥ ) وكان يؤدي أجراً آخر ليكون له حق صيد السمك ، أو اقتناص الحيوان البري ، أو رعى ماشيته وحيوانه الأليف في أراضي المالك ( ٦ ) وكان عليه أن يرفع قضايا أمام محاكم صاحب الأرض ، وأن يؤدي في نظير هذا رسماً يختلف باختلاف خطر القضية ( ٧ ) وكان عليه أن يلبي دعوة المالك في الانضمام

إلى فيلقه إذا نشبت الحرب (٨) وإذا أسر المالك كان على الرقيق أن يشتهك  
أداء فديته (٩) وكان عليه فوق ذلك أن يشترك في تقديم الهدايا القيمة  
المستحقة لابن المالك إذا رقى إلى مرتبة الفرسان (١٠) وكان يؤدي للمالك  
ضريبة عن كل ما يحملة من الغلات ليبيعه في السوق أو المعرض (١١) ولم  
يكن من حقه أن يبيع جعته أو خمره إلا بعد أن يسبقه المالك بأسبوعين يبيع  
فيهما هو جعته وخمره (١٢) وكان عليه في كثير من الأحيان أن يبتاع قدرًا  
معينًا من خمر سيده كل عام ؛ فإذا لم يبتعها في الوقت المناسب (كما تقول  
إحدى مواد قانون الضيعة) « صب المالك قدرًا من الخمر يعادل أربعة  
جالونات فوق سطح الرقيق ، فإذا جرى الخمر إلى أسفل كان على الرقيق أن  
يؤدي ثمنه ، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شيء ما » (١٦) . (١٣)  
وكان عليه أن يؤدي غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابنًا له ليتعلم تعليماً عالياً  
أو وهبه للكنيسة لأن الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة (١٤) وكان يؤدي ضريبة ،  
ويحصل على إذن من المالك إذا تزوج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج  
عن نطاق الضيعة لأن المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة  
أو يخسرهم كلهم ، وكان لابد من الحصول على هذا الإذن وهذه الضريبة  
في بعض المزارع في كل زواج أياً كان (١٥) ونستمع في حالات فردية عن  
« حق الليلة الأولى » أي حق السيد في أن يقضي مع عروس رقيق الأرض  
الليلة الأولى من زواجها ، ولكن الرقيق كان يسمح له أحياناً أن « يفتدى »  
عروسه بأجر يؤديه للسيد (١٨) ؛ وقد بقي حق الليلة الأولى بصورته هذه في بافاريا  
حتى القرن الثامن عشر (١٩) . وكان المالك في بعض الضياع الإنجليزية يفرض  
غرامة على الفلاح الذي تأثم ابنته ؛ وفي بعض الضياع الأسبانية كانت زوجة  
الفلاح التي يحكم عليها في جريمة الزنى تؤول أملاكها كلها أو بعضها لصاحب  
الأرض (٢٠) (١٦) وإذا مات الفلاح ولم يكن له ولد يقيم معه عاد بيته وعادت  
أرضه إلى السيد تطبيقاً لحق الحكومة في أن ترث من لا وارث له ؛ وإن

كان وارثه ابنة غير متزوجة لم يكن لها أن تستبق الأرض إلا إذا تزوجت رجلاً يقيم في الضيعة نفسها ، وسواء كان للمتوفى وارث أو لم يكن له فقد كان من حق السيد إذا توفى المستأجر أن يستولى في صورة ضريبة التركات على ماشية ، أو قطعة من قطع الأثاث أو ثوب من تركة المتوفى ، ولقس الأسقفية في بعض الحالات أن يستولى على مثل رسوم الوفاة هذه (٢١) . ولم تكن رسوم الوفاة تحصل في فرنسا إلا إذا لم يكن للمتوفى وارث يعيش معه في بيته . ( ١٧ ) وكان عليه في بعض الضياع وبخاصة في ضياع الكنيسة أن يؤدي ضريبة سنوية وضريبة تركات للقائد الذي ينظم وسائل الدفاع الحربى عن المقاطعة .

وليس في وسعنا أن نقدر مجموع الفروض الواجب على رقيق الأرض أداؤها بالنظر إلى هذه الرسوم والضرائب المتنوعة ، وهي رسوم وضرائب لم تكن كلها تحصل من كل أسرة . وقد قدرت في ألمانيا في خلال العصور الوسطى بثلاثي محصولاته (٢١) ؛ وكانت قوة العادة ، التي هي ذات السلطان الأكبر في الأنظمة الزراعية ، في صالح رقيق الأرض ؛ فقد كانت الرسوم التي يؤديها نقداً وعيناً تنزع إلى الثبات كما هي على مر القرون (٢٢) رغم ازدياد غلة الأرض وانخفاض قيمة النقد . وكان كثير من القيود والفروض التي تثقل كاهل الرقيق في العصور الوسطى يخففها أو يلغها تسامح الملاك ، أو المقاومة الفعالة من جانب الأرقاء ، أو نسيانها على مر الزمان (٢٣) . ولعل ما يوصف به رقيق الأرض في العصور الوسطى من بؤس قد بولغ فيه ؛ فقد كان الجزء الأكبر من الرسوم التي تنزع منه بديلاً من الإيجار النقدي الواجب أداؤها للمالك ، وضرائب تؤدي للمجتمع لتمكينه من أداء الخدمات والأعمال العامة ، ولعل نسبتها إلى دخله كانت أقل من نسبة الضرائب التي تؤديها نحن في هذه الأيام إلى حكومة الاتحاد ، وإلى الولاية ، والمقاطعة ، والمدرسة (٢٤) . (\*) . ولقد كانت حال الفلاح المتوسط في القرن الثامن عشر مماثلة

( \* ) يشير الكاتب هنا بطبيعة الحال إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ( المترجم ) .

لحال بعض الزراع الذين يقتسمون مع الملاك غلة الأرض التي يزرعونها في الدول الحالية ، وكانت بلا شك خيراً من حال صعاليك الرومان في عهد أغسطس (٢٥) . ذلك أن المالك في ذلك الوقت لم يكن يعد نفسه مستغلاً ، بل كان يعمل بجد في المزرعة ، وقلما كان موفور الثراء . وظل الفلاحون حتى القرن الثالث عشر ينظرون إليه نظرة الإعجاب ، ونظرة الحب في كثير من الأحيان ، وكانوا إذا ترمّل السيد ولم ينجب أبناء يوفدون إليه الوفود يلحون عليه بأن يتزوج مرة أخرى ، حتى لا يترك الضيعة دون وريث من نسله ، فتسوء حالها إذا تعرضت لحرب الوراثة (٢٦) . وكان الإقطاع ، كما كانت معظم الأنظمة الاقتصادية والسياسية في التاريخ ، ما لا بد له أن يكون لمواجهة مستلزمات المكان والزمان وفطرة الناس .

وكان كوخ الفلاح يقام من الخشب المهش الرقيق ، ويسقف عادة بالقش والعشب المتلبد ، وأحياناً بالحصباء . ولم نسمع قط عن نظام لمقاومة الحريق قبل عام ١٢٥٠ ، ومن أجل هذا كانت النار إذا اشتعلت في أحد هذه الأكواخ أتت عليه وعلى كل ما فيه . وكان الكوخ في كثير من الأحيان يتكون من حجرة واحدة ولا يزيد قط على حجرتين ، وبه مدفأة يحرق فيها الخشب ، وتنور ، ووعاء للعجين ، ومنضلة ، وبضعة مقاعد ، وصوان ، وصحاف ، وآنية ، ومجمر ، ومرجل ، وحالة لتعليق الأوعية ، وخشية كبيرة من الريش أو القش قرب التنور مبسوطة على الأرض ينام عليها الفلاح ، وزوجته ، وأبناؤهما ، وطازق الليل من الضيوف مختلطين بعضهم ببعض يدق بعضهم بعضاً . وكان فناء البيت مأوى الخنازير والدواجن ، وكانت النساء يعنين بنظافة البيت بقدر ما تسمح به الظروف ، ولكن الفلاحين الكادحين كانوا يجدون في تنظيف البيت مشقة كبيرة . وتحدثنا الأقاليم أن الشيطان لا يقبل أرقاء الأرض في الجحيم لأنه لا يطيق رائحتهم (٢٧) . وكان بالقرب من الدار فضاء مسور للحصان والأبقار ، وقد يكون فيه أحياناً خلايا للنحل وخن للدجاج ، وبالقرب منه كوم الروث يتكون من فضلات الحيوانات

وأفراد الأسرة . وكان حول هذا كله أدوات الزرع والصناعات المنزلية ، وكان قط يحرس البيت من الفيران وكلب يشرف على هذا كله . وكان الفلاح يرتدى قميصاً نصفياً من القماش أو جلد الحيوان ، وسترة من الجلد أو الصوف ، ومنطقة وسروالا ، وحذاء نصفياً أو عالياً ، وما من شك في أنه كان يبدو بملابسه هذه شخصاً قوياً لا يختلف كثيراً عن فلاح فرنسا في هذه الأيام . وليس من حقنا أن نصوره في صورة الشخص المظلوم المغلوب على أمره ، بل علينا أن نتمثله بطلا يفلح الأرض ، قوياً صبوراً ، تحفظ عليه كيانه كما يحفظ كيان كل إنسان غيره عزة كامنة مهما كانت بعيدة عن العقل والمنطق . ولم تكن زوجته أقل منه كدحاً من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس . وكانت إلى هذا تنجب له الأبناء ؛ وإذا كان لهؤلاء الأبناء قيمة اقتصادية في المزرعة فقد كانت تكثر منهم ؛ لكننا مع هذا نقرأ في أقوال بلاجيوس الفرنسي (حوالي ١٣٣٠) أن بعض الفلاحين « كثيراً ما كانوا يمتنعون عن مباشرة أزواجهم كيلا يلدن أبناء محتجين بأنهم يخشون لفقرهم أن يعجزوا عن تربيتهم إذا كثروا » (٢٨) .

وكان طعام الفلاح كافياً مغذياً - يتألف من منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر واللحم ؛ وإن كان بعض المؤرخين المتطرفين يرثون له لأنه كان يضطر إلى أكل الخبز الأسود - أي المصنوع من الدقيق غير المنخول (٢٩) . وكان يشترك في حياة القرية الاجتماعية ، ولكنه لم تكن له متعة ثقافية ؛ فلم يكن يعرف القراءة ، لأن في وجود رقيق الأرض التي يعرفها إساءة إلى سيده الأسمى . وكان يجهل كل شيء عدا الزرع ، وحتى هذا لم يكن بارعاً فيه . وكانت طباعه خشنة شديدة ، ولعله كان فظاً غليظ القلب . وقد اضطرت أحوال أوروبا المضطربة أن يعيش عيشة الحيوان الطيب ، وفي الحق أنه استطاع أن يعيش على هذا النحو . فقد كان لفقره شراً ، ونخوفه قاسياً ، وللكبت الواقع عليه عنيفاً ، وكان جلفاً لأنه يعامل معاملة الأجلاف : وكان هو عماد الكنيسة ، ولكنه كان لديه من

الخرافات أكثر مما كان لديه من الدين ، وقد اتهمه بلاجيوس بأنه كان يخدع الكنيسة فلا يؤدي إليها عشورها ، ويهمل في مراعاة أيامها المقدسة وأيام صومها ؛ ويشكو جوتيه ده كوانسى Gautier de Coincy ( في القرن الثالث عشر ) من أن رقيق الأرض « ليس في قلبه من خشية الله أكثر مما في قلب الشاة ولا يأبه مطلقاً بقوانين الكنيسة المقدسة » (٣٠) . وكانت له لحظات فكاهته الثقيلة السمجة ، ولكنه كان في حقله وفي بيته قليل الكلام ، صريح الألفاظ ، رزيناً ، يشغله كدحه المتواصل وأعماله الكثيرة عن أن يضع جهوداً في الكلام أو الأحلام . وكان رغم خرافاته واقعي النزعة ، يدرك تصاريف الأقدار التي لا هوادة فيها ولا رحمة ، ويوقن أن الموت آت لا ريب فيه ، فقد كان جذب فصل من فصول العام يهلكه هو وحيواناته جوعاً . وقد حدث بين عامي ٩٧٠ و ١١٠٠ ستون فيحطاً حصدت الأهلين زرافات في فرنسا ، ولم يكن في وسع أي فلاح بريطاني أن ينسى ما حدث من القحط في عامي ١٠٨٦ و ١١٢٥ في إنجلترا المرحة الطروب ؛ وقد روع أسقف تربييه في القرن الثاني عشر حين رأى الفلاحين يذبجون جواده ويأكلون لحمه (٣١) . ثم زاد الفيضان والوباء والزلازل الطين بلة وأحالت المسلاة آخر الأمر مأساة .

### ٣ - مجتمع القرية

وكان جماعة من الفلاحين يترأوح عددهم بين خمسين وخمسمائة يتألفون من أرقاء الأرض ، ونصف الأحرار ، والأحرار ، يبنون قريتهم حول قصر السيد الإقطاعي في الريف . ولم تكن بيوتهم منعزلة بعضها عن بعض بل كانت متجاورة داخل أسوار القرية لأن في قربها أماناً لهم . وكانت القرية عادة جزءاً من ضيعة واحدة أو أكثر من ضيعة ، وكان السيد المالك هو الذي يعين الكثرة الغالبة من موظفيها ، ولم يكونوا يسألون إلا أمامه وحده ، ولكن الفلاحين كانوا يختارون لهم عمدة

أورثياً يتوسط بينهم وبين المالك وينسق نشاطهم الزراعي : وكانوا يجتمعون في السوق في فترات معينة ليتبادلوا السلع ، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة في هذه الضيعة المكتفية بنفسها من الناحية الاقتصادية ، فقد كان البيت الريفي ينتج بنفسه ما يلزمه من الخضر وبعض ما يلزمه من اللحوم ، ويغزل صوفه أو كتانه ، وينسج معظم ما يحتاجه أفراده من الثياب . وكان حداد القرية يصنع الآلات الحديدية ، ودابع الجلود يصنع البضائع الجلدية ، والنجار ينشئ الأكواخ ويصنع الأثاث ، وصانع العربات يصنع المركبات ، والقصارون ، والصباغون ، والبناءون ، وصانعو السروج ، والحذاؤون ، والصبانون . . . كان كل هؤلاء يعيشون في القرية أو يأتون إليها ليقيموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه ، وكان القصاب العام أو الخباز ينافس الفلاح وزوجته في إعداد اللحم والخبز .

وكانت تسعة أعشار الاقتصاد الإقطاعي قائمة على الزراعة . وقد جرت العادة في فرنسا وإنجلترا في القرن الحادي عشر أن تقسم أرض المزرعة إلى ثلاثة حقول : أحدها يزرع قمحاً أو شيلما ، وثانيها شعيراً أو شوفانا ، ويترك الثالث بوراً . وكان كل حقل يقسم قطعاً مساحة كل منها نحو فدان إنجائزي أو نصف فدان يفصل كلا منها على الأخرى حاجز من أرض غير محروثة . وكان موظفو القرية يحددون لكل زارع عدداً مختلفاً من القطع في كل حقل ويحتمون عليه أن يتبع فيها دورة زراعية تجرى على خطة يضعها مجتمع القرية . وكان الأهليون مجتمعين يقومون في الحقل بالعمليات الزراعية كلها من حرث وتمهيد ، وغرس وبذر ، وحصاد . ولعل توزيع قطع الفلاح الواحد بين ثلاث حقول أو أكثر كان يهدف إلى إعطائه نصيباً معادلاً لنصيب غيره من الأراضي غير المتساوية الخصوبة ، ولعل هذه القرية التعاونية كانت بقية من شيوعية يدائية لا تزال آثار قليلة منها باقية في هذه الأيام . وكان من حق كل فلاح يؤدي ما عليه من الواجبات الإقطاعية بالإضافة إلى زرع

هذه القطع أن يقطع الأشجار ، ويرعى ماشيته ، ويجمع الكلاً الجاف من غابات الضيعة ، وأرض الكلاً المشاع فيها ، « وأرضها الخضراء » وكان له عادة حول كوخه ما يكفي من الأرض لإنشاء حديقة وغرس الأزهار .

ولم يكن علم الزراعة في البلاد المسيحية الإقطاعية يضارع نظيره عند الرومان في عهد كولمبلا *Columbella* أو عند المسلمين في بلاد العراق أو الأندلس . وكانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق في الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة ؛ وكان يتخذ من الطين الغضار (\*) أو غيره من التراب والجير نوع من السماد البسيط ، فلم يكن يوجد في ذلك الوقت مخصبات صناعية ، وكان ما يعترض النقل من صعاب يقلل استخدام روث الحيوان ، ولهذا كان رئيس أساقفة رون *Rouen* يلقى أقدار اسطبلاته في نهر السين بدل أن ينقلها إلى حقوله القريبة منها في دقيل *Deville* ، وكان الفلاحون يشتركون في جمع دريهماتهم القليلة لشراء محراث أو زحافة يستعملونهما جميعاً . وظل الثور هو حيوان الجر عندهم حتى القرن الحادى عشر ؛ ذلك أن هذا الحيوان أقل نفقة من الحصان في إطعامه ، وكان إذا كبرت سنه أكثر منه نفقاً إذا اتخذ طعاماً . ولكن صانعى السروج اخترعوا حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد الطوق الجامد الذى يمكن الحصان من جر حمل ثقيل دون أن يختنق ؛ وإذا وضع هذا الطوق في عنق الحصان أمكنه أن يحرث في اليوم الواحد ثلاثة أمثال ما يحرثه الثور أو أربعة أمثاله . وإذا كانت سرعة الحرث مهمة في الجواء المعتدلة الرطبة فقد أخذ الحصان في القرن الحادى عشر يحل محل الثور ويفقد ما كان له من منزلة عالية جعلت الناس يحتفظون به من قبل للسفر ، والصيد ، والحرب (٣٢) . ودخلت السواقي أوروبا الغربية أواخر القرن الحادى عشر ، وكانت مستخدمة قبل ذلك يزمن طويل في بلاد الشرق الإسلامية (٣٣) .

(\*) المارل ويسمى أيضاً بالثمن وهو نوع من الطين الخزفي غنى بكاربونات الكالسيوم . (المترجم)

وكانت الكنيسة تخفف من كدح الفلاح بأيام الآحاد والأعياد التي كان « العمل الوضيع » فيها يعد إثمًا من الآثام . وفي ذلك يقول الفلاخون : « إن أثوارنا تعرف متى يحل يوم الأحد ، وهي لذلك تأتي أن تعمل في ذلك اليوم » (٣٤) . وكان الفلاح إذا فرغ من الصلاة في ذلك اليوم يغني ويرقص ، وينسى في ضحكه الربني العالي أعباء الوعظ والمزرعة الثقيل . وكانت البجعة رخيصة الثمن ، وكان الحديد حراً طليقاً بديئاً . وكانت أقاصيص خليعة عن النساء تختلط بالخرافات الرهيبة التي تروى عن القديسين . وكانت ألعاب عنيفة ككرة القدم ، والهوكي ، والمصارعة ، وقذف الأثقال يتبارى فيها رجل مع رجل . وكان قتال الديكة ، ومصارعة الثيران كثيرى الحدوث ، وكان تهمس النظارة يصل إلى غايته حين يحاول رجلان معصوبا العينين ، مسلحان بالعصى الغليظة أن يقتلا إوزة أو خنزيراً داخل دائرة مغلقة . وكان الفلاخون في بعض الليالي يتزاورون ، ويلعبون ألعاباً داخل البيوت ، ويحتسون الخمر ، وكانوا في العادة يقضون أوقاتهم داخل البيوت ، لأن الحارات لم تكن مضاءة ، وكانوا يأوون إلى الفراش مبكرين بعد أن تظلم الدنيا بقليل لأن الشموع كانت غالية الثمن . وكانت الأسرة إذا دخل الشتاء بليله الطويل تأوى الماشية في الكوخ وترحب بها وتفيد بما تحدثه فيه من الدفء .

وهكذا كان الفلاخون في أوربا يطعمون أنفسهم ، وساداتهم ، وبنوهم ، وقساوستهم ، وملوكهم ، بكدهم المتواصل وبسالتهم الصامتة ، لا بما تبعثه في نفوسهم الحوافز الصالحة من مهارة وقدرة على الابتكار . وكانوا يجففون المناقع ، ويقىمون الجسور والجواجز ، ويقطعون أشجار الغابات ، ويظهرون القنوات ، ويشقون الطرق ، ويبنون البيوت ، ويوسعون نطاق دائرة الحضارة ، وينكسبون المعركة القائمة بين الغابة والإنسان . وإن أوربا الحديثة لم تخلقهم وصنع أيديهم ؛ ونحن إذا ما شاهدنا الآن تلك السياج الأنيقة ، والحقول المنظمة ، لا نستطيع أن

نتصور ذلك الكدح الطويل ، والمحن الشداد التي دامت عدة قرون ، والتي حطمت ظهور الرجال وقلوبهم ، والتي سخرت المواد الغفل التي تخرجها الطبيعة السخية على كره ، ووضعت بها الأسس الاقتصادية لحياتنا الحاضرة .

وكانت النساء أيضاً مجندات في تلك الحرب العوان ، فقد كان خصمهن وصبرهن على إنجاب الأبناء وتربيتهم هما اللذين ذللا الأرض . وحارب الرهبان وقتما ما ، ولم يكونوا في حربهم أقل بسالة من غيرهم ، فقد أقاموا أديرتهم مراقب أمامية في الفقار ، وأنشأوا من الفوضى نظاما اقتصاديا ، وبنوا القرى في البرارى ، وبفضل هذه الجهود كلها رفرف علم الحضارة على ربوع أوروبا في نهاية العصور الوسطى بعد أن كان الجزء الأكبر من أرضها في بداية تلك العصور أرضين غير منزرعة ، وغابات خالية من السكان ، وبرارى مقفرة ، ولعل هذا العمل ، إذا نظرنا إليه النظرة الصحيحة ، هو أشد كفاح ، وأنبى نصر ، وأعظم عمل تم في عصر الإيمان .

#### ٤ - المالك

في كل نظام اقتصادى يسيطر الرجال الذين يستطيعون السيطرة على أولئك الذين لا يستطيعونها إلا على الجهاد . وكان المسيطر على الرجال في أوروبا الإقطاعية هو السيد المالك - وهو باللغة اللاتينية dominus ، وبالفرنسية seigneur ، وبالرومانية senior وبالألمانية Herr ، وبالإنجليزية lord (أى السيد) وكانت أعماله تنقسم ثلاثة أقسام : أن يوفر وسائل الدفاع العسكرى عن أراضيه وسكانها ، وأن ينظم شئون الزراعة والصناعة والتجارة في تلك الأراضى ، وأن يخدم سيده الأكبر أو مليكه في الحرب . ولم يكن المجتمع قادراً على البقاء في هذا النظام الاقتصادى الذى تحطم إلى عناصره الأولى وتمزق لطول عهده بالهجرة ، والغارات ، والنهب ، والحروب - لم يكن المجتمع قادراً على البقاء في هذا النظام

إلا باستقلاله المحلي وكفاية موارده من الطعام والجنود ؛ ولهذا أصبح القادرون على تنظيم وسائل الدفاع وفتح الأرض هم سادتها وملاكها بطبيعة الحال ، وأضحى امتلاك الأرض وإدارتها مصدر الثراء والسلطان ، ونشأ عهد من الأرستقراطية مالكة الأرض دام إلى عهد الانقلاب الصناعي .

وكان المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الإقطاع هو الولاء المتبادل الذي يتمثل فيما على رقيق الأرض أو التابع من التزامات اقتصادية وعسكرية لسيدته ، وفيما على هذا السيد من واجبات مثلها لسيدته الأعلى ، وفيما على هذا السيد الأعلى من واجبات للملك ، وفيما على الملك من واجبات نحو السيد الأعلى ، وفيما على هذه السيد الأعلى من واجبات للسيد الأصغر منه ، وفيما على هذا السيد الأصغر من واجبات لتابعه أو رقيق أرضه . وكان السيد يجزي أرقائه على خدمتهم إياه أرضاً يستبقونها طوال حياتهم ، تكاد تكون ملكاً لهم . وكان يجيز لهم أن يستخدموا بأجر قليل أفرانه ، ومعاصره ، وطواحينه ، ومياهه ، وغاباته ، وحقله ؛ وكان يستبدل بكثير من الواجبات التي تتطلب جهودهم العضلية قدرًا قليلاً من المال ، ويسمح بأن تسقط بعض الواجبات الأخرى على مر الزمان . ولم يكن ينزع الأرض من رقيقه إذا أعجزه المرض أو الشيخوخة - بل كان يعنى به عادة ويقدم له المعونة<sup>(٣٥)</sup> . ومن الملاك من كان يفتح أبوابه للفقراء في أيام الأعياد ويطعم كل من يدخلها ؛ وكان ينظم وسائل المحافظة على القناطر ، والطرق ، والقنوات ، والتجارة ، ويجد الأسواق التي يصرف فيها ما زاد من منتجات الضيعة على حاجتها ، والأيدى العاملة للقيام بأعمالها ، والمال ليشتري به حاجاتها . وكان يأتي إليها بالسلالات الطيبة من الماشية ليربها ، ويسمح لأرقائه أن يلحقوا ماشيتهم بالذكور الممتازة عنده ؛ وكان من حقه أن يضرب رقيق أرضه ، أو أن يقتله في بعض الأماكن أو الأحوال ، دون أن ينحس عقاباً ، ولكن شعوره بمصالحه الاقتصادية كان يكبح جماح وحشيته ، وكانت له في أملاكه السلطات القضائية والعسكرية ،

وكان يستفيد فوق ما يجب من الغرامات التي تفرضها محاكم الضيعة ؛ ولكن معظم قضاة هذه المحكمة كانوا من أرقاء الأرض أنفسهم ، وإن كانت ترهبها سلطة المأمور التابع للشريف . ويتبين لنا مع تهافت الأرقاء على هذه الهيئات القضائية لتعفيه من الخدمات نظير ما يقدمه من المال - يتبين لنا من تهافتهم عليها أن قراراتها لم تكن شديدة الظلم . وكان في مقدور كل رقيق يجد في نفسه الجرأة الكافية أن يجهر برأيه في محكمة الضيعة ، ومن الأرقاء من كانوا يجدون في أنفسهم هذه الجرأة ، وقد أعانت هذه المحاكم بأحكامها الفردية ، وبغير قصد منها ، على إيجاد الحريات التي قضت آخر الأمر على عهد رقيق الأرض .

وكان في وسع السيد الإقطاعي أن يمتلك أكثر من ضيعة واحدة ، وكان يعين في هذه الحالة وكيلا له يشرف على أملاكه أي على ضياعه كلها ، وكان له في كل منها ناظر أو مأمور ، وكان هو ينتقل من ضيعة إلى ضيعة ومعه أفراد أسرته ليستهلكوا غلاتها في مواضع إنتاجها ؛ وقد يكون له قصر حصين في كل واحدة منها . وكان قصر السيد الإقطاعي يرجع نشأته إلى معسكر الفيالق الرومانية المسور (Castellum, Castrum) أو إلى قصر الشريف الروماني الريفي المحصن أو إلى حصن الزعيم الألماني (burg) ، وكان يهدف إلى حماية سكانه أكثر مما يهدف إلى راحتهم . وكان أبعد وسائل الدفاع عنه من الخارج خندق عريض عميق ؛ وكانت الأتربة الناتجة من حفره والتي تلتقي في الجهة الداخلية منه تكون حاجزاً عالياً تدق فيه عُمدة مربعة يرتبط بعضها ببعض ليتكون منها سور متصل . وكان جسر متحرك مثبت طرفه الداخلي يؤدي إلى باب حديدي كبير أو باب آخر شبكي قبله ، يحمي مدخلا ضخماً في سور الحصن . وكان في داخل هذا السور اسطبلات ، ومطبخ ، ومخازن ، وأبنية صغرى ، ومخبز ، ومغسل ، وكنيسة صغيرة ، ومساكن للخدم ، مبنية كلها عادة من الخشب . وكان مستأجرو الضيعة يهرعون عادة هم وماشيئهم ومنقولاتهم إلى داخل

هذا السور . ويقوم في وسطه البرج أو بيت المالك ؛ وهو في معظم الأحوال برج مربع كبير مقام من الخشب أيضاً ؛ ولكنه قبل أن يستهل القرن الثاني عشر بنى من الحجارة واتخذ شكلاً دائرياً ليسهل الدفاع عنه أكثر من ذي قبل . وكان الطابق الأدنى من هذا البرج مخزناً وجبياً ، ومن فوقه يسكن المالك وأسرته . وقد نشأت من هذه الأبراج في القرنين الحادى عشر والثانى عشر قصور الأشراف في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وهى القصور التى كانت جدرانها الحجرية المنيعة عماد قوة الملاك ضد مستأجريهم وضد الملك .

وكان البرج من داخله مظلماً ، ضيقاً ، محصوراً ، قليل النوافذ صغيرها ، وقلمما كانت لها ألواح زجاجية . وكان الخيش أو الورق الملون ، أو المصاريح الخشبية ، أو شبابيك الشيش تمنع عنه معظم المطر والكثير من الضوء ؛ وكانت الشموع والمشاعل تستخدم فى الإضاءة الاصطناعية ، ولم تكن هناك فى معظم الأحوال إلا حجرة واحدة فى كل طابق من أطبائه الثلاثة ؛ وكانت السلالم أو الأبواب التى فى السقوف ، أو الدرج المتعرجة ، تصل أطباق البرج بعضها ببعض . وكان فى الطابق الثانى البهو الرئيسى ، الذى تعقد فيه محكمة المالك والذى يستخدم فضلاً عن ذلك مطعماً ، وحجرة لجلوس الأسرة ، ونوم معظم أفرادها . وقد يكون فى إحدى أطرافها مصطبة مرتفعة ، يتناول عليها المالك ، وأسرته ، ومن يستضيفه طعامهم . أما غيرهم فكانوا يتناولون طعامهم على موائد متنقلة توضع أمام مقاعد فى ممرات هذا الطابق . فإذا حان وقت النوم وضعت الحشيات على الأرض أو على أسرة منخفضة من الخشب فى الممرات . وكان أهل الدار كلهم ينامون فى هذه الحجرة الوحيدة تحجبهم حواجز بعضهم عن بعض . وكانت الحجرات تطلّى بالجير أو بالألوان الزيتية ، وتزين بالأعلام ، والأسلحة ، والدروع ، وكان من المستطاع وقاية الحجرة من التيارات الهوائية بالستائر أو الأقمشة المنقوشة . وكانت الأرض تبلط بالألواح القرميد أو الحجارة ، وتغطى بالقش

أو أغصان الأشجار ؛ وكانت تدفأ من وسطها من موقد يحرق فيه الخشب .  
وظلت الدار من غير مدخنة إلى أواخر العصور الوسطى ؛ وكان الدخان  
يخرج من فتحة بالسقف ، وكان من خلف المصطبة باب يوصل إلى « مشمسة »  
يستطيع السيد وأسرته وضيافته أن يسترجوا فيها ويستمتعوا بأشعة الشمس .  
وكان الأثاث هنا أدعى إلى الراحة منه في الحجرات ، فقد كان في هذه  
المشمسة بساط ، ومدفأة ، وسرير مريح .

وكان مالك الضيعة يرتدى جلباباً يتخذ عادة من الحرير الملون ، نقشت  
عليه رسوم هندسية أو نباتية ، وحرملة تغطي الكتفين وغير مشدودة يستطيع  
رفعها فوق الرأس ؛ وسروالاً تحتياً ( لباساً ) قصيراً من فوقه سروال  
آخر ( بنطلون ) قصير أيضاً ؛ وجوربين قصيرين يرتفعان إلى الفخذين ،  
وحذاءين طويلين يرتفع طرفاهما الأماميين كأنهما مقدم سفينة . وكان  
يتأرجح من منطقتة جراب وسيف ، وتتدلى عادة من عنقه مدلاة على  
شكل صليب . ولما أراد الأشراف الأوربيون أن يميزوا الفرسان ذوي  
الحوذ والدروع أحدهم عن الآخر في الحرب الصليبية الأولى (٣٦) ، أخذوا  
عن المسلمين عادة (٣٧) تميز أرواحهم ، وحلهم ، وألويتهم ، ودروعهم ،  
وسروج خيلهم بنقوش خاصة أو شعائر حربية ، ومن ثم أنشأت الفروسية  
لنفسها رطانة عجيبة لا يفهمها إلا الفرسان والقائمون على شئون الفروسية (\*).  
ولم يكن المالك رغم هذه الزينات كلها بالإنسان المتعطل المتطفل ، فقد كان يستيقظ  
في مطلع الفجر ، ويصعد إلى برجه ليتبين هل يحدق به خطر ، ثم يفطر مسرعاً ،

---

( \* ) وسمى اللون الأصفر ، والأبيض ، والأزرق ، والأحمر ، والأخضر ، والأسود ؛  
والبنفسجي ، على هذا الترتيب نفسه ، بالذهبي ، والفضي ، والساوي ، والوردي ، والنباتي ،  
والرملي ، والأرجواني . وكان الأزرق الساوي لوناً أخذ عن الشرق ، ومن ثم كان من أيمانهم  
« ما وراء البحر » . وكان الصليبيون بزينون معاصمهم ورقابهم بأساور مزركشة من الفرو -  
تصنع عادة باللون الأحمر - ( واللنظ الإنجليزي الذي يسمى به هذا اللون وهو *gules* مشتق  
من لفظ جولا اللاتيني ومعناه حلق ) . وكافت الأديرة ، والبلدان ، والأمم ، تستخدم هذه  
الرموز في القرن الثالث عشر كما تستخدمها الأسر ، وكانت الأسر القديمة تضع عادة فوق  
رموزها أو ألويتها شعاراً موجزاً جامعاً مثل : طاهر السريرة ؛ لا بالكثير ولا بالقليل .. الخ .

وقد يذهب بعد ذلك للصلاة في الكنيسة ، ثم « يتغدى » في الساعة التاسعة صباحاً ، ويشرف بعدئذ على أعمال الضيعة الكثيرة ، ويشترك بنفسه في بعضها ، ويصدر أوامره إلى الناظر ورئيس الخدم ، والسائس ، وغيرهم من أتباعه ، ويستقبل الزوار وعابري السبيل ، ثم « يتعشى » معهم ومع أسرته في الساعة الخامسة ، ويأوى عادة إلى فراشه في الساعة التاسعة مساء . وكان هذا العمل الرتيب يتغير في بعض الأيام إذا ذهب إلى الصيد ، ويتغير كذلك أحياناً قليلاً إذا لعب « البرجاس » ، ويتغير من حين إلى حين إذا قامت الحرب . وكثيراً ما كان يقيم الولائم ، ويتبادل الهدايا الكثيرة مع الأضياف .

ولا تكاد زوجته تقل عنه عملاً . فكانت تلد له كثيراً من الأبناء وتربيتهم ، وكانت توجه الخدم الكثيرين ، وتلكمهم أحياناً ، وتلاحظ الخبز ، والمطبخ ، والمغسل ، وتشرف على عمل الزبد والخبز ، وعصر الجعة ، وتمليح اللحم لحفظه لأيام الشتاء ، وتعمل في تلك الصناعات المنزلية الكبرى صناعات الخياطة ، والحياكة ، والغزل ، والنسيج والتطريز ، التي تعد بها معظم ملابس الأسرة ؛ فإذا خرج زوجها للحرب قامت هي بشئون المزرعة العسكرية والاقتصادية ، وكان ينتظر منها أن تمده بحاجاته المالية في أثناء حروبه ؛ فإذا وقع في الأسر كان عليها أن تدبر المال اللازم لافتدائه من كدرقيق أرضه ، أو من بيع جواهرها وأدوات زينتها ؛ وإذا مات زوجها وليس له ولد ذكر ، فقد توول إليها سيادة الضيعة . فتصبح هي سيدتها dame domina ، ولكنها كان ينتظر منها أن تزوج مرة أخرى بعد زمن قليل لتي للضيعة وللسيد الأكبر ما يلزمهما من الخدمة أو الحماية العسكرية . وكان السيد الأكبر يقصر اختيارها على عدد قليل من الخاطبين القادرين على أداء هاتين المهمتين . وكان في مقدورها أن تصبح في داخل قصرها مسترجلة أو صحابة ، وتبادل زوجها لطمة بلطمة ؛ وكانت في ساعات فراغها تلبس على جسمها القوى أثواباً فضفاضة من الحرير ذات أهداب من الفراء ، وتحذى حذاءين

لطيفين ، وتغطي رأسها بغطاء جميل ، وتزدان بالحلي المتألثة فتصبح بذلك كلة قادرة على بعث نشوة الحب أو الأدب في قلوب الشعراء الجوالين .

وكان أبناؤها يتلقون تعليماً يختلف كل الاختلاف عن تعليم الجامعات . لأن أبناء الأشراف قلما كانوا يرسلون إلى المدارس العامة ، ولم يكن في كثير من الحالات يبذل أى مجهود في سبيل تعليمهم القراءة . ذلك أن القراءة والكتابة كانتا تتركبان للقساوسة والكتبة الذين كانوا يستأجرون بأقل الأجور ، وأن الكثرة الغالبة من فرسان الإقطاع كانوا يهتقون المعارف العقلية ، فقد تعلم جيسكلين Guesclin مثلاً ، وهو من أجل شخصيات الفروسية ، جميع فنون الحرب ، وتعود مواجهة كل تقلبات الجوّ بقلب ثابت ، ولكنه لم يعن أقل عناية بتعلم القراءة ، ولم يحتفظ الأشراف بتقاليدهم الأدبية إلا في إيطاليا وبيزنطية . وكان ابن أسرة الفرسان يرسل السابعة من عمره ، بدل المدرسة ، ليكون وصيفاً في بيت شريف آخر يتأدب فيه ويتعلم الطاعة ، والأخلاق الطيبة ، وطريقة اللبس ، وقانون الشرف الخاص بالفرسان ، ومما تتطلبه المثاقفة والحرب من حذق ، وربما أضاف القسيس المحلي إلى هذا شيئاً من التدريب على القراءة والحساب . وكانت البنات يتعلمن مائة من الفنون النافعة أو الجميلة ، ولم تكن الوسيلة إلى هذا تزيد على النظر والعمل . وكن يعنين بشئون الضيوف ، والفارس حين يعود من الحرب أو البرجاس ؛ فكان يحملن دروعه ، ويحضرن حمامه ، ويأتين له بالثياب التحتية والفوقية ، والعمود ، ويخدمنه وقت الطعام بأدب جم وتواضع ورقة مدروسة ؛ وكن هن ، لا الأولاد ، يتعلمن القراءة والكتابة ، وكان منهن كثرة يستمعن إلى الشعراء ، والقصاصين ، والمغنين وإلى نثر ذلك الوقت وشعره الإبداعيين .

وكثيراً ما كان بيت الشريف يشتمل على بعض المقطعين أو الأتباع . فأما المقطّع فكان رجلاً ينال من الشريف نظير خدمته العسكرية والشخصية ،

أو المعونة السياسية ، منفعة أو ميزة قيمة - وهي في العادة مساحة من الأرض ومن عليها من أرقاء الأرض ، وفي هذه الحال يكون للمقطع حق الانتفاع بالريع ، أما الملكية فتبقى للشريف . وكان الرجل الذي يمنعه كبرياؤه أو تمنعه قوته من أن يكون رقيق أرض ولكنه أضعف من أن يعد لنفسه وسائل الدفاع العسكرية ، يؤدي مراسم « الولاء » لشريف إقطاعي : يركع أمامه وهو أعزل عارى الرأس ، ويضع يديه في يدي الشريف ، ويعلن أنه « رجل » ذلك الشريف (homme) (وإن كان يحتفظ بحقوقه بوصفه رجلاً حراً) ، ثم يقسم على بعض الخلفات المقدسة أو على الكتاب المقدس أن يظل وفياً للسيد إلى آخر أيام حياته . ثم يرفعه السيد ، ويقبله ، ويمنحه إقطاعية(\*) ، ويعطيه رمزاً لهذه المنحة قشة ، أو عصا ، أو حربة ، أو قفازاً . ويصبح السيد من ذلك الحين ملزماً بحماية المقطع ، وصداقته ، والإخلاص له ، وتقديم المعونة الاقتصادية والقضائية ؛ وكان عليه ، كما يقول أحد المحامين في العصور الوسطى ، ألا يهين هذا المقطع ، أو يغوى ابنته أو زوجته (٣٩) ، فإذا فعل كان من حق المقطع أن « يلقي القفاز » علامة على التحدي ، أي أنه أصبح خارجاً عن الولاء له - ومن حقه مع ذلك أن يحتفظ بإقطاعيته :

وقد يُقطع المقطع « من باطنه » جزءاً من الأرض إلى مقطع أقل منه تكون علاقته به وتبعاته نحوه هي نفس العلاقة والتبعات التي بين المقطع الأصيل والسيد . وكان في وسع المقطع أن تكون له إقطاعيات من عدد من السادة ، وأن يكون مديناً لهم « بولاء بسيط » وخدمات محدوده ، ولكن عليه أن يدين لسيد أعلى « بولاء كامل » وخدمة كاملة في السلم والحرب . وقد يكون السيد نفسه مهما عظم شأنه ، مقطعاً من قبل غيره من السادة إذا أخذ منه ملكاً أو إقطاعية ، وقد يكون مقطعاً - أي مالكا لإقطاعية - من مقطع من سيد آخر . وكان السادة كلهم

---

(\*) وهي بالإنجليزية fief ؛ والكلمة مشتقة من كلمة fendum اللاتينية ، وهذه مأخوذة عن كلمة faibu الألمانية القديمة أو القوطية ، ومعناها الماشية . وهي ذات صلة بكلمة pecu اللاتينية ، ولقد أصبح لها مثلها معنى ثانوياً وهو البضائع أو النقود .

مقطعين من الملك . ولم تكن الرابطة الأولى في هذه الصلات المعقدة هي الرابطة الاقتصادية ، بل كانت هي الرابطة العسكرية ، فقد كان الرجل يقدم الخدمة العسكرية والولاء الشخصي ، أو يدين بهما ، إلى سيد ، وكان ما يعطى له من الأرض جزاء له على خدمته وولائه لا أكثر ولا أقل . وكان الإقطاع من الوجهة النظرية نظاماً عظيماً يتبادل بمقتضاه الأخلاق الطيبة ، يربط رجال المجتمع المعرض للخطر بعضهم ببعض برباط قوامه تبادل أداء الواجبات ، والحماية ، والإخلاص .

### ٥ - الكنيسة الإقطاعية

وكان مالك الضيعة في بعض الأحيان أسقفاً أو رئيس دير ؛ وكان كثير من الرهبان يعملون بأيديهم ، وكثير من الأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التي تجبي من الأبرشية ، ولكن المؤسسات الكهنوتية الكبيرة كانت بالإضافة إلى هذا العمل اليدوي وتلك الأموال في حاجة إلى المعونة المالية ؛ وكانت تنال الجزء الأكبر من هذه المعونة من الملوك والأشراف على صورة هبات من الأرض أو أنصبة من الإيرادات الإقطاعية . وتراكت هذه الهدايا حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي ، وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا ؛ فقد كان دير فلدا مثلاً يمتلك ١٥٠٠٠ ر١٥ قصر صغير من قصور الريف ، وكان دير سانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض (٤٠) ؛ وكان الكوين في تور سيداً لعشرين ألفاً من أرقاء الأرض (٤١) . وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية ، ويسكون العملة ، ويرأسون محاكم الأسقفيات والأديرة ، ويضطلعون بالواجبات الإقطاعية الخاصة بالخدمة العسكرية والإشراف الزراعي . وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزرد والدروع والمسلحون بالحرايب من المناظر المألوفة

في ألمانيا وفرنسا . وكان رتشارد أمير كورنول في عام ١٢٥٧ يجهر بأسفه  
لخاؤ إنجلترا من « الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية » (٤٢) .  
وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعي ، فألفت نفسها  
منظمة سياسية ، واقتصادية ، وحربية لا منظمة دينية وكفى . وكانت  
أملاكها « الزمنية » أى المادية ، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجعل  
بالعار كل مسيحي مستمسك بدينه ، وسخرية تلوكها أسنة الخارجين على  
الدين ، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات . وهكذا أصبحت  
الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع .

## ٦ - الملك

وكما كانت الكنيسة في القرن الثاني عشر منشأة إقطاعية ذات حكومة  
دينية غرضها تبادل الحماية ، والخدمات ، والولاء ، تقوم بها طائفة من رجال  
الدين ويرأسها البابا سيدها الأعلى ، كذلك كان الحكم الزمني الإقطاعي يتطلب  
لكي يبلغ تمامه رئيساً أعلى لجميع المقطعين ، وسيداً صاحب السلطان على جميع  
السادة الزمنيين ، أى أنه كان في حاجة إلى ملك . وكان الملك من  
الوجهة الزمنية تابعاً لله ، يحكم بما له من حق إلهي ، بمعنى أن الله أجاز له أن  
يحكم ، ومن ثم فوضه في أن يحكم . أما من الوجهة العملية فإن الملك قد  
ارتفع إلى عرشه بطريق الانتخاب أو الوراثة ، أو الحرب . نعم إن رجالاً  
من أمثال شارلمان ، وأتو الأول ، ووليم الفاتح ، وفليب أغسطس ،  
ولويس التاسع ، وفردريك الثاني ، ولويس الحميل ، وسعوا سلطانهم  
الموروث بقوة الخلق أو السلاح ؛ ولكن ملوك أوروبا الإقطاعية لم يكونوا  
عادة حكاماً لشعوبهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل الأقبال التابعين لهم ؛  
فقد كان كبار الأشراف ورجال الدين هم الذين يختارونهم أو يوافقون على  
اختيارهم ، وكان سلطانهم المباشر محصوراً في أملاكهم الإقطاعية أو ضياعهم ؛  
أما في غير هذه الأملاك والضياع من مملكتهم فقد كان رقيق الأرض أو التابع

الذى أقطع أرضاً يدين بالولاء للمالك الذى يحميه ، وقبلما كان يدين بهذا الولاء للمك الذى كانت قوته الصغيرة البعيدة عنه عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المشتتة فى أنحاء المملكة . وعلى هذا فإن الدولة فى النظام الإقطاعى لم تكن إلا ضيعة الملك .

وذهب هذا التفتت فى الحكم إلى أبعد حد فى غالة لأن الأمراء الكارولنجيين أضعفوا قواهم بتقسيم الإمبراطورية ، ولأن الأساقفة أخضعوهم لسلطان الكنيسة ، ولأن هجمات الشماليين على فرنسا كانت أشد هجمات هؤلاء الأقوام عنفاً . ولم يكن الملك فى هذا النظام الإقطاعى الكامل إلا « صاحب المقام الأول بين أنداد » ؛ لا يعلو عن يحملون لقب الأمير ، والدوق ، والمركيز ، والكونت إلا قليلاً ، ولكنه كان من الناحية العملية شيئاً « بأشراف الدولة هؤلاء » ، فقد كان شريفاً إقطاعياً تقتصر موارده المالية على ريع أراضيه ، ويضطر إلى الانتقال من ضيعة ملكية إلى أخرى ليحصل على طعامه وشرابه ، ويعتمد فى الحرب والسلام على المعونة العسكرية أو الخدمة الدبلوماسية التى يؤديها له تابعوه الأغنياء ، ولم يكن هؤلاء يتعهدون له بأكثر من أربعين يوماً من العمل المسلح كل عام ، وكانوا يقضون نصف وقتهم فى الائتار به لخلعه . وكان الملك يضطر إلى منح الضيعة فى إثر الضيعة لأقوياء الرجال ليكسب بذلك معونتهم أو يجزيهم على هذه المعونة ، حتى كان ما تبقى من الأرض ملوك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر أقل من أن يجعل لهم فوق أتباعهم الملاك من السيادة ما يؤمنهم على عرشهم ؛ ولما أن أورث هؤلاء الملاك أبناءهم ضياعهم ، وأنشأوا لأنفسهم شرطة ومحاكم ، وسكوا باسمهم النقود ، لما أن فعلوا هذا لم يجد الملك لديه من القوة ما يمنعهم من فعله ، ولم يكن فى وسعه أن يتدخل فى اختصاصات أتباعه القضائية فى أملاكهم إلا فى قضايا الإعدام التى تستأنف له ، ولم يكن من حقه أن يرسل موظفيه أو جباته إلى أملاكهم ، أو يمنعهم أن يعقدوا المعاهدات

المستقلة ، أو يشنوا الحروب من تلقاء أنفسهم . نعم إن ملك فرنسا كان من الناحية النظرية يمتلك جميع أراضي الملاك الذين يلقبونه سيدهم ، ولكنه لم يكن في واقع الأمر إلا مالكا من كبار الملاك ، ولم يكن حتماً أكبرهم ، ولم تكن أملاكه في يوم من الأيام أكبر من أملاك الكنيسة .

وكما أن عجز الملوك عن حماية ممالكهم كان سبباً في نشأة نظام الإقطاع ، كذلك كان عجز أمراء الإقطاع عن حفظ النظام فيما بينهم أو إقامة الحكومة الموحدة التي تتطلبها النظام الاقتصادي التجاري ، كان هذا العجز سبباً في إضعاف السادة الإقطاعيين وتقوية الملوك . وكان تحمس الأشراف في المنازعات الحربية في أوروبا الإقطاعية يلقي بهم في غمار الحروب الخاصة والعامّة حتى امتصت دماءهم - الحروب الصليبية ، وحرب الأعوام المائة ، وحروب الوردتين ، والحروب الدينية التي اختتمت بها هذه الحروب ، ومنهم من افتقروا وخرجوا على القانون فصاروا أشرافاً من قطاع الطرق ينهبون ويقتلون كما يشاءون ، وتطلبت المساوي التي نشأت من الإفراط في الحرية سلطة موحدة تحفظ النظام في جميع أنحاء المملكة ، وأوجدت التجارة والصناعة في خارج نطاق الرابطة الإقطاعية طبقة غنية متزايدة العدد ، ولم يكن التجار راضين عن الضرائب الإقطاعية ، وأخطار النقل داخل الممتلكات الإقطاعية ، وأخذوا يطالبون بأن تحل حكومة مركزية محل القوانين الخاصة . وتحالف الملك مع هذه الطبقة ومع المدن الآخذة في النماء فأخذت هذه وتلك تمده بما يحتاجه من المال لتأييد سلطانه وتوسيعه ، وأخذ كل من يحس بالظلم أو الأذى من الأعيان يتطلع إلى الملك لينقذه ويرد الأذى عنه . وكان كبار الملاك من بين رجال الكنيسة أتباعاً للملك عادة وأوفياء له ، كذلك كان البابوات يجهدون أن اتصالحوا بالملك أيسر من اتصالحهم بالأشراف المتفرقين الذين لا يستمسكون كل

الاستمساك بالقانون ، ولم يمنعهم من هذا الاتصال كثرة ما كان يحدث بينهم وبين الملوك من نزاع . واستطاع ملوك فرنسا وإنجلترا تويدهم هذه القوى المختلفة أن يجعلوا سلطتهم وراثية بعد أن كانت بالانتخاب ؛ وكانت وسيلتهم إلى هذا أن يتوج الواحد منهم ابناً أو أخاً له قبل وفاته ، وارتضى الناس هذه الملكية الوراثة بديلاً من فوضى الإقطاع ؛ كذلك كان تحسين سبل الاتصال وازدياد تداول النقد مما جعل فرض الضرائب المنتظمة مستطاعاً ، وأمكن الملك بفضل موارده المتزايدة أن يحصل على ما يلزمه من المال لتقوية جيشه وزيادة عدده ؛ وانضمت طبقة رجال القانون الناشئة إلى العرش وقوته بفضل ما في القانون الروماني الذي عاد إلى الحياة من نزعة نحو المركزية ؛ فلم يجل عام ١٢٥٠ حتى أيد علماء القانون حق الملك في أن ييسط سلطانه القضائي على كل من في مملكته ، وحتى كان جميع الفرنسيين يقسمون بين الولاء للملكهم لا لسيدهم الإقطاعي . وبهذا كان لفليب الجميل في آخر القرن الثالث عشر من القوة ما أمكنه من إخضاع أشرف بلاده ، بل وإخضاع البابوية نفسها ، لسلطانه .

ونخفف ملوك فرنسا على أشرف بلادهم مرارة هذا الانتقال بمنحهم ألقاباً وامتيازات في بلاطهم تعوضهم عن حقهم الخاص في سك النقود ، وإصدار الأحكام القضائية ، وشن الحروب ؛ فكان كبار أتباعه يوافقون حاجية الملك Curia regis ، وأصبحوا بذلك رجال بلاط لا أصحاب صولة ، واستحالت مراسم قصور الأعيان شيئاً فشيئاً إلى خدمات رسمية يقومون بها في مجالس الملك ، وحول مائدته ، وفي غرفة نومه . وكان أبناء الأعيان وبناتهم يرسلون إلى قصر الملك ليخدموه أو ليعلموا الملكة بأن يكونوا خدماً خصوصيين أو وصيفات ، وليتعلموا آداب البلاط ، وبذلك أصبح قصر الملك مدرسة لأبناء الأشراف

وكانت خاتمة الحفلات وأعظمها هي حفلة تتويج ملك فرنسا في ريمس أو إمبراطور ألمانيا في آخن أو فرانكفورت ، ففي هذه الحفلات كان صفوة الأعيان من جميع البلاد يجتمعون في أثوابهم وعدتهم الفخمة الرهيبية ، وكانت الكنيسة تستخدم كل ما في شعائرها من خفاء وجلال لإحاطة تتويج الحاكم الجديد بجميع مظاهر المجد والجلال ، وبهذا أضحت سلطة الملك سلطة إلهية ، لا يستطيع أحد أن يعارضها وإلا أعد خارجاً صراحة على الدين . وأقبل الملاك الإقطاعيون على بلاط الملك الذي أخضعهم لسلطانه ، وأسبغت الكنيسة حقاً إلهياً على الملوك الذين حطموا زعامتها وسلطانها على أوربا بعد ذلك الوقت .

## الفصل الثالث

### شريعة الإقطاع

كانت العادات والشرائع في الغالب شيئاً واحداً في نظام الحكم الإقطاعي حيث كان القضاة والقائمون بتنفيذ القانون المدني عادة أميين . فإذا ما ثارت مشكلة خاصة بالقانون أو العقاب ، سئل أكبر أعضاء المجتمع سناً عما جرت به العادة في هذه المشكلة أيام شبابه ، ولهذا كان المجتمع نفسه المصدر الرئيسي للقوانين . نعم إنه كان في مقدور الشريف أو الملك أن يصدر الأوامر ، ولكن هذه الأوامر لم تكن قوانين ، وإذا ما طلب إلى الناس أكثر مما تجزئه العادات حالت بينه وبين مطالبه مقاومة الشعب عامة جبهة أوصتها (٤٣) . وكان لفرنسا الجنوبية قانون مكتوب ورثته عن الرومان ، أما فرنسا الشمالية حيث كان الإقطاع أكثر تغلغلا منه في الجنوب ، فقد احتفظت في الأغلب الأعم بشرائع الفرنجة ، ولما أن دونت هذه القوانين أيضاً في القرن الثالث عشر ، أضحى تغييرها ، الذي كان من قبل صعباً ، أشد صعوبة مما كان ، ونشأت مائة قصة قضائية للتوفيق بين هذه القوانين وبين الحقيقة الواقعة .

وكان قانون الملكية الإقطاعي قانوناً فذاً معقداً ، يقر ثلاثة أشكال للملكية العقارية : (١) الملكية المطلقة غير المشروطة بشرط ما . (٢) الالتزام وهو منح غلة الأرض لا ملكيتها لتابع إقطاعي بشرط أداء الخدمة المفروضة على الشريف و (٣) الإيجار - وهو الذي تعطى به غلة الأرض لرقيق الأرض أو مستأجرها على شريطة أن يقوم بأداء الالتزامات الإقطاعية . وكان الملك وحده حسب النظرية الإقطاعية هو الذي يستمتع بالملكية المطلقة ، أما كل من عداه ، ومنهم أسمي الأشراف مقاماً ، فكانوا مستأجرين يمتلكون الأرض على شريطة أن يؤدوا

عنها الخدمة الواجبة . كذلك لم تكن ملكية السيد الإقطاعي للأرض مقصورة عليه وحده ، بل كان لكل واحد من أبنائه حق موروث في أرض الآباء ، وكان له أن يحول دون بيعها<sup>(٤٤)</sup> . وكانت العادة المألوفة أن توول الأرض إلى أكبر الأبناء الذكور ، ذلك بأن هذه العادة التي لم تكن معروفة في القانون الروماني أو قوانين الأمم المتبربرة أصبحت موافقة لظروف النظام الإقطاعي ، لأنها تضع شئون الحماية العسكرية والإشراف الاقتصادي في يد رئيس واحد ، يفترض فيه أنه أنصح أبناء الأسرة عقلاً . أما الذكور الأصغر منه سناً فكانوا يشجعون على المغامرة لتملك ضياع أخرى في أراضي غير أرض آبائهم ؛ وكان القانون الإقطاعي ، رغم ما فرضه على الملكية من قيود ، لا يقل عن أى قانون سواه احتراماً للملكية وقسوة في عقاب من يعتدون على حقوقها . مثال ذلك أن أحد القوانين الألمانية كان ينص على أن من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التي تمسك أحد الجسور « يشق بطنه ، وتنزع أعضائه ، وتلف حول القطع الذي أحدثه » ؛ وكان في وستفاليا قانون ظل معمولاً به حتى عام ١٤٥٤ يقضى بأن من يرتكب جريمة إزالة أحد معالم حدود أرض جاره ، يدفن في الأرض إلى ما تحت رأسه ، ثم تسلط عليه أثوار ورجال لم يسبق لهم أن حرثوا أرضاً يحرثون رأسه ، « وللرجل الدفين أن ينقذ نفسه بخير وسيلة يستطيعها »<sup>(٤٦)</sup> .

وكانت الإجراءات القضائية في القانون الإقطاعي تتبع في الأغلب الأعم قوانين البلاد الهمجية ، وتعمل لاستبدال العقوبات القانونية العامة بالثأر الفردي . وكانت الكنائس ، والأسواق العامة ، ومدن الالتجاء « تمنح حق الأماكن الحرم ؛ وكان من المستطاع بفضل هذه القيود أن يوقف الانتقام حتى يتدخل القانون في الأمر . وكانت محاكم الضياع تنظر القضايا التي تقوم بين مستأجر ومستأجر ، أو بين مستأجر وسيد ؛ أما المنازعات التي تثور بين سيد وتابع له ، أو بين سيد وسيد ، فكانت تعرض على محلفين « من أعيان البارونية » وهم رجال

يجب ألا يقلوا في المنزلة عن الشاكي نفسه<sup>(٤٧)</sup> ، وأن يكونوا تانعين للإقطاعية نفسها ، ومن يجلسون معه في بهو إقطاعي واحد . وكانت محاكم الأسقفيات أو الأديرة تنظر في قضايا رجال الدين ، أما الاستئناف الأعلى فكان يرفع إلى المحكمة الملكية المؤلفة من أعيان الدولة ، وكان يرأسها الملك نفسه أحياناً . وكان المدعى والمدعى عليه أمام محاكم الضياع يجلسان حتى يصدر الحكم في قضيتهم . وكان المدعى الذي يخسر القضية المرفوعة أياً كان نوعها يعاقب بنفس العقوبة التي توقع على المدعى عليه إذا ثبتت عليه التهمة . وكانت الرشوة شائعة في جميع المحاكم<sup>(٤٨)</sup> .

وظل التحكيم الإلهي معمولاً به طوال عهد الإقطاع . وقد حدث في عام ١٢١٥ أن فرض الاختبار بالحديد المحمي على بعض الخارجين على الدين في كمبريه Cambrai ؛ فلما أصيبوا بحروق سيقوا إلى القائمة التي يشد إليها من يحرقون ، ولكن أحدهم أعفى من العقوبة ، كما يقولون ، لأنه أقر بذنبه ، فشفيت يده من فوره ، ولم يبق فيها أثر للحروق . وكان انتشار الفلسفة في خلال القرن الثاني عشر ، وإقبال الناس من جديد على دراسة القانون الروماني ، من أسباب كراهية الناس لهذا « التحكيم الإلهي » . واستطاع البابا إنوسنت الثالث أن يقنع مجلس لاترن الرابع في عام ١٢١٦ بإلغاء هذا النوع من المحاكمة إلغاء تاماً ، وأدخل هنري الثالث هذا الإلغاء في القانون الإنجليزي ( ١٢١٩ ) ، كما أدخله فردريك الثاني في قانون نابلي ( ١٢٣١ ) ؛ أما في ألمانيا فقد ظلت الاختبارات القديمة معمولاً بها حتى القرن الرابع عشر ؛ وقاسى سفنرولا Savonarola التحكيم الإلهي بالنار عام ١٤٩٨ في فلورنس ، وعاد هذا التحكيم إلى الوجود في محاكمة الساحرات في القرن السادس عشر<sup>(٤٩)</sup> .

وشجع نظام الإقطاع السنة الألمانية القديمة ، سنة المحاكمة بالاعتقال ، وكانت هذه السنة وسيلة للإثبات من ناحية ، وبديلاً من الثأر الفردي من ناحية أخرى .

وأعاد النورمان هذه السنة إلى بريطانيا بعد أن أهملت في عهد الأنجلايسكسون ،  
ثم ظلت ثابتة في سجل القانون الإنجليزي حتى القرن التاسع عشر (٥٠) .  
ومما يذكر في هذا الصدد أن فارساً يدعى هرمان Hermann اتهم فارساً آخر  
يدعى جاي Guy بالاشراك في اغتيال تشارلس الصالح Charles the Good  
ملك فلاندرز ؛ فلما أنكر جاي التهمة دعاه هرمان إلى مبارزة قضائية ، وظل  
الرجلان يتقاتلان عدة ساعات ، حتى فقد كلاهما جواده ونحس سلاحه ،  
فانتقلا من المبارزة إلى المصارعة ، واستطاع هرمان أن يبرهن على عدالة  
التهمة بانتزاع خصيتي جاي من جسمه ، ويموت جاي بتأثير هذا  
الانتزاع (٥١) . ولعل الإقطاعيين قد استحووا من هذه العادات الهمجية  
ففرضوا قيوداً على حق المبارزة ظلت تتراكم على مدى الأجيال ؛ فكان  
يطلب إلى المدعى إذا أراد أن يحصل على حق الدعوة إلى المبارزة أن يتقدم  
بقضية مرجحة الكسب ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض القتال  
إذا أثبت أنه كان في غير مكان الجريمة حين وقوعها ؛ ولم يكن لرقيق أرض  
أن يبارز حراً ، أو مجذوم أن يبارز سليماً ، أو ابن غير شرعي أن يبارز  
ابناً شرعياً ، وقصارى القول أنه لم يكن يصح لشخص أن يبارز إلا  
شخصاً مساوياً له في مرتبته . وكانت قوانين بعض المجتمعات تمنح المحكمة  
حق منع أية مبارزة قضائية متى شاءت ؛ وكان رجال الدين ، والنساء ،  
والمصابون بأية عاهة جسمية يعفون من المبارزة ، ولكنهم كان لهم أن  
أن يختاروا « أبطالاً » - أي مبارزين بارعين - ينوبون عنهم في المبارزة .  
والمثلك نسمع منذ القرن العاشر عن أبطال ماجورين يحلون محل الذكور  
المبارزين وإن كانوا صحيحى الأجسام ، ذلك بأنه إذا كان الله سيقضى  
في الأمر حسب عدالة التهمة فقد يبدو أن شخصية المقتتلين لا شأن لها بهذا  
القضاء . وقد عرض أتو الأول مسألة عفة ابنته ، والنزاع القائم حول وراثته  
بعض الضياع ، ليفصل فيها أبطال مبارزون (٥٢) ، وكذلك بلحا ألفنسو العاشر  
ملك قشتالة إلى هذا النوع من المبارزة ليقرر هل يعمل بالقانون الروماني في

ملكته (٥٣) وكانت السفارات تزود أحياناً بالأبطال المبارزين ليكونوا حاضرين إذا نشب نزاع دبلوماسي يجوز الفصل فيه بالمبارزة . وظل أبطال من هذا النوع يظهرون في الاحتفال بتتويج ملوك الإنجليز حتى عام ١٨٢١ ؛ وقد أصبحوا قبل ذلك التاريخ من مخلفات الماضي ذوات الشكل الجميل ، ولكن هذا البطل المبارز كان يفترض فيه في العصور الوسطى أن يلتقي قفازه على الأرض ، ويعلن بصوت عال استعدادة للمبارزة للدفاع عما للملك من حق إلهي في تاجه (٥٤) .

وكان الالتجاء إلى الأبطال مما يحط من شأن المحاكمة بالاقتتال ، ولهذا حرمة الطبقات الوسطى الناشئة في التشريعات العامة ، واستبدلت به في القرن الثالث عشر القانون الروماني في أوروبا الجنوبية ، وكثيراً ما نددت به الكنيسة ، وحرمه إنوسنت الثالث تحريماً قاطعاً (١٢١٥) ، ومنعه فردريك الثاني من أملاكه في نابلي ؛ وألغاه لويس التاسع في الأقاليم الخاضعة لحكمه خضوعاً مباشراً (١٢٦٠) ؛ وحرمه فليب الجميل (١٣٠٣) في جميع أنحاء فرنسا . هذا والمبارزة لا تستمد أكبر أسباب نشأتها من الاقتتال القضائي بقدر ما تستمد من حق الناس القديم في أن يثاروا لأنفسهم ممن يعتدون عليهم .

وكانت العقوبات الإقطاعية قاسية قسوة وحشية ، فكانت الغرامات لا يحصى لها عدد ، وكان السجن يستخدم وسيلة لحجز المتقاضين أكثر مما يستخدم عقاباً للمدنيين ، ولكن السجن كان في حد ذاته تعذيباً للمسجون لما كان في حجراته من حشرات ، وجرذان ، وأفاع (٥٥) ؛ وكان يحكم أحياناً على الرجال والنساء بالحنك أو الصلب علناً ، وأن يجعل المعاقب هدفاً لسخرية الجماهير ، أو يقذف بالطعام الفاسد أو يرمم بالحجارة ؛ وكان كرسي الاعتراف يتخذ عقاباً لمن يرتكبون بعض الجرائم أو الثرثارين أو النساء الساقطات ، فكان من يحكم عليهم بهذا العقاب يشدون إلى كرسي يربط بزافعة طويلة ثم يغرق بهم الكرسي في مجرى مائي أو بركة . وكان الأشداء من المدنين يحكم عليهم أحياناً بالعمل في السفن ،

فكانوا يساقون إليها عراة ، ولا ينالون إلا القليل من الطعام الذي لا يغنى من جوع ، ويشدون إلى المقاعد ثم يرغمون على التعذيب فيها حتى تخور قواهم ، فإذا امتنعوا أو توانوا جلدوا أشد الجلد وأقساه . وكان الجلد بالسوط أو العصا من العقوبات العادية . وكان جسم المذنب ووجهه أحياناً - يكوى ليوسم بحرف ما يرمز للجريمة . وكان الحنث في الإيمان والتعذيب يعاقبان أحياناً بحرق اللسان بقطعة من الحديد المحمى : وكان بتر الأعضاء أمراً مألوفاً ، فكانت اليدان ، أو القدمان ، أو الأذنان ، أو الأنف تقطع ، والعينا تسملان ، وكان من اللوسائل التي لجأ إليها ولیم الفاتح لمكافحة الجرائم « ألا يقتل إنسان أو يشنق لجريمة ارتكبها ، بل أن تفقأ عيناه ، وأن تقطع يده ، وقدماه ، ونخصيته ، حتى إذا ما بقي شيء من جسمه كان ذلك الشيء الباقي دليلاً على جميع جرائمه وجوره » (٥٦) . وقلما كان التعذيب من العقوبات المعمول بها في العصور الوسطى ، وإن كانت الشرائع الرومانية والكنسية قد أعادته إلى الوجود في القرن الثالث عشر . وكان القتل والسرقة يعاقب عليهما أحياناً بالنفى ، وكان أكثر ما يعاقبان به هو قطع الرأس أو الشنق ، وكان عقاب القاتلات أن يدفن وهن على قيد الحياة (٥٧) . ويمكن عقاب الحيوان الذي يقتل آدمياً بدفنه حياً أو بشنقه . وكانت المسيحية تدعو إلى الرأفة ، ولكن المحاكم الكنسية كانت تعاقب على الجرائم بنفس العقوبات التي توقعها المحاكم المدنية ؛ من ذلك أن محكمة دير سانت چنفييف St. Geneviève حكمت بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة عقاباً لمن على السرقة (٥٨) : وبعد فلعل كبح جماح الخارجين على القانون في العصور الهمجية ، كان يحتاج إلى تلك العقوبات الوحشية ، ولكن هذه العقوبات الوحشية نفسها بقيت حتى القرن الثامن عشر ، ولم تكن شر أنواع التعذيب هي التي يفرضها الأشراف على القتلة بل كانت هي التي يفرضها الرهبان المسيحيون على الأتقياء المارقين .

## الفصل الرابع

### الحروب الإقطاعية

نشأ الإقطاع ليكون نظاماً عسكرياً لمجتمع زراعي غير مطمئن على نفسه ؛ وكانت فضائله حربية أكثر منها اقتصادية . وكان ينتظر من سادة الإقطاع وأتباعهم أن يدرّبوا أنفسهم على الحرب وأن يكونوا في كل لحظة من اللحظات مستعدين لترك المحراث وانتضاء السيف .

وكان جيش الإقطاع هو الأداة الحكومية الإقطاعية ، تنظمه روابط الولاء الإقطاعي وينقسم انقساماً دقيقاً إلى طبقة فوق طبقة حسب درجات الشرف والمنزلة ؛ فالأمير ، والمركيز ، والكونت ، ورئيس الأساقفة ، هم قواد الجيش ، والبارون ، والسيد ، والأسقف ، ورئيس الدير ، هم رؤساء الفرق ، وكان الفرسان knights أو Chevaliers هم راكبي الخيل ، وكان الأتباع هم خدم البارونات أو الفرسان ، وكان حملة السلاح men-at-arms - الجيش المرابط في المقاطعات أو القرى - يحاربون مشاة ، وكان من وراء الجيش الإقطاعي ، كما نراه في الحروب الصليبية ، حشد من الخدم Varlets ينبعون الجند سيراً على الأقدام من غير نظام ولا قواد ، وكانوا يساعدون الجيوش على انتهاب المغلوبين ، ويريحون المعذبين ممن يسقطون في حومة الوغى ، والجرحى من الأعداء بأن يجهزوا عليهم ببلطهم الحربية أو عصيهم الغليظة<sup>(٥٩)</sup> . ولكن الجيش الإقطاعي كان في جوهره وأساسه هو الفارس مكرراً ، ذلك أن المشاة قد فقدوا منزلتهم العليا بعد معركة هدريانوبل ( ٣٧٨ ) ، ولم يستعيدوا هذه المنزلة إلا في القرن الرابع عشر ، وكان الفرسان هم عماد الفروسية ، وكان اسمهم وكل ما يتصل به من الأسماء الأخرى Cavalry ، Chivalry ، Caballero ، Cavalier ، مشتقاً من اسم الفرس .

وكان المحارب في عهد الإقطاع يستخدم الحربة ، والسيف ،  
والقوس ، والسهم . وقد مد الفارس نفسه ووسع دائرتها حتى شملت  
سيفه ، وأطلق عليه اسما يتم على إعزازه وحبه ، وإن كان مما لا شك  
فيه أن الشعراء القصاصيين هم الذين أطلقوا على سيف شارلمان اسم  
«المبتهجة» Joyeuse وعلى سيف رولان دورندل Durandel ، وعلى  
سيف الملك آرثر اسم Excalibur . وكان للقوس عدة أشكال فقد  
تكون قوسا بسيطة قصيرة ، تشد عند الصدر ، وقد تكون قوسا  
طويلة تشد نحو العين والأذن ، وقد تكون قوسا متقاطعة يشد وترها في محز  
بمقبضها ، ثم تطلق فجأة ، وقد يستخدم أحيانا زناد في إطلاقها ، وتنطلق  
منها قذيفة من الحديد أو الحجر . وكانت القوس المتقاطعة أداة قديمة العهد ،  
أما القوس الطويلة فكان أول من اشتهر باستعمالها إدورد الأول (١٢٧٢ -  
١٣٠٧) في حروبه مع أهل ويلز . وكانت الرماية أهم عناصر التدريب  
العسكري في إنجلترا كما كانت من أهم العناصر في ألعاب الفروسية . وكان تطور  
القوس وإتقانها بداية تدهور النظام الإقطاعي من الناحية العسكرية ،  
ذلك أن الفارس كان يستنكف أن يحارب راجلا ، ولكن الرماة كانوا  
يقتلون جواده ، ويرغمونه على أن ينزل إلى الأرض التي لا تتفق وطبيعته .  
ووجهت آخر الضربات إلى الإقطاع في القرن الرابع عشر بعد اختراع  
البارود والمدافع ، فقد أمكن بهما قتل الفارس المدرع وتدمير قصره من  
مساحة لا سلطان للفارس عليها لبعده عنها .

وإذ كان للمحارب الإقطاعي جواد يحمله ، فقد كان يسعه أن يثقل نفسه  
بالدروع ، ولهذا كان الفارس الكامل العدة في القرن الثاني عشر يغطي جسمه  
بالزرد من عنقه إلى ركبتيه - تستره شبكة ذات أكمام لذراعيه ، وقلنسوة من  
الحديد تغطي كل رأسه عدا عينيه ، وأنفة ، وفه ، وكانت ساقاه وقدماه تغطي  
بدروع من الزرد خاصة بها . فإذا كان في الحرب غطى رأسه فضلا عن غطائه  
السالف الذكر بنحوذة من الصلب ذات وقاية من الحديد تحمي أنفه . وظهرت في

القرن الرابع عشر البيضة ذات الحافة الأمامية البارزة ، والدرع المصنوع من الصفائح المعدنية لحماية الفارس من القوس الطويلة أو المتقاطعة ، وبقينا حتى القرن السابع عشر ؛ ثم بطل استعمال الدروع كلها تقريبا ليكون المحارب سريع الحركة . وكان للفارس ترس معلق في عنقه ، يقبض عليه بيده اليسرى من سيور مثبتة في سطحه الداخلي ، وكان هذا الترس يصنع من الخشب ، والجلد ، والأربطة الحديدية ، ويزدان في وسطه بمشبك من الحديد المذهب ، وهكذا كان الفارس في العصور الوسطى قلعة متحركة .

وكانت الحصون عادة هي أهم وسائل الدفاع وأجدها في الحروب الإقطاعية . فكان في وسع الجيش الذي يهزم في ميدان القتال أن يجد له ملجأ داخل أسوار بيت الشريف ، وكان في وسعه أن يقف من العدو وقفته الأخيرة داخل البرج . وازدهر علم الحصار في العصور الوسطى لأن ما يلزم لك أسوار الأعداء من تنظيم وعدد كان أغلى وأشق من أن يطيقه الفرسان أصحاب المكانة العالية ، ولكن فن المدمر والجندي الملغم ظل باقيا في تلك العصور . كذلك قل شأن الأساطيل في عالم كانت النزعة الحربية فيه أقوى مما تحتمله موارده . وقد ظلت السفائن الحربية شبيهة بسفائن الأقدمين - تحمل فوق سطوحها أبراج القتال ، ويدفعها بالمجاديف الرجال الأحرار أو الأرقاء المشدودون إليها . وكان ما ينقص الرجل أو السفينة من القوة يستعاض عنه بالزينة ، فكان بناء السفن والفنانون في العصور الوسطى يضعون على خشب السفينة طبقة من القار تقيه من تأثير الماء والهواء ، ثم يطلونها من فوقه بالألوان الزاهية الممزجة بالشمع - بيضاء أو قرمزية أو زرقاء في لون ماء البحر الشديدة الزرقة ، وكانوا يدهبون جؤجؤها وأسيجتها ، ويقيمون في مقدمها ومؤخرها تماثيل لأناس ، وحيوانات ، وآلهة . وكانت الأشرعة تلون بألوان زاهية ، بعضها أرجواني ، وبعضها ذهبي ، وكانت سفينة السيد تنقش عليها شارة درعه . وتختلف حروب العصور الوسطى عن الحروب القديمة والحديثة في كثرة

عددها ، وقلة نفقاتها وعدد من يقتلون فيها . فأما كثرة العدد فكان سببها أن كل سيد كان يدعى لنفسه حق محاربة كل رجل لا تربطه به روابط الإقطاع ، كان كل ملك حراً في أن يعتمد إلى السرقة الشريفة سرقة أراضى غيره من الحكام . وإذا ذهب الملك أو الشريف إلى الحرب ، كان على أتباعه وأقاربه حتى الطبقة السابعة أن يتبعوه ويقاتلوا معه أربعين يوماً ، ولا يكاد يوجد يوم من أيام القرن الثاني عشر لم تكن فيه حرب في جزء من أجزاء البلاد المعروفة الآن باسم فرنسا ، وكان أسمى ما يبلغه الفارس من الصفات أن يكون محارباً بارعاً ، وكان ينتظر منه أن يكيل أو يتلقى الضربات القوية في سرور أو جلد ، وكانت أعظم أمنية له أن يموت ميتة المحارب في « ميدان الشرف » ، لا « ميتة الأبقار » في الفراش (٦٠) ، ولقد شكنا برثولد الراتسبونى Berthold of Ratisbon من « قلة عدد السادة الذين يصلون إلى السن الصحيحة أو يموتون الميتة الصحيحة » (٦١) ولكن راتسبون هذا كان من الرهبان .

ولم تكن الحرب شديدة الخطورة ، فهاهو ذا أردركس فيتالس Ordericus Vitalis يصف معركة بريمول Brémule ( ١١١٩ ) بقوله إنه « لم يقتل إلا ثلاثة من الفوارس التسعمائة الذين كانوا يحاربون » (٦٢) ، وقد أسر أربعمائة فارس في معركة تنشبريه Tinchebrai ( ١١٠٦ ) ، التي كسب فيها هنرى الأول ملك إنجلترا بلاد نورماندية ، ولكن فارساً واحداً لم يقتل من فرسان هنرى . وفي واقعة بوفين Bouvine ( ١٢١٤ ) وهى من الوقائع الحاسمة التي كانت أشد معارك العصور الوسطى هولا قتل مائة وسبعون فارساً من الألف والحسمائة الذين اشتركوا في القتال (٦٣) . وكانت الدروع والقلاع تجعل الميزة في الحرب للدفاع ؛ فقد كان من الصعب أن يقتل الرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض ، ولم يكن هذا العمل مما ترضى عنه الفروسية . كذلك كان أسر الفارس وقبول فديته أدنى إلى الصواب من قتله والتعرض للانتقام الدموى ؛ وها هو ذا فرواسار

Froissart يحزنه أن قتل في إحدى المعارك « كثيرون من الأسرى كان مستطاعاً أن يجنى من افتدائهم ٤٠٠,٠٠٠ فذلك (٦٤) » : وكانت قواعد الفروسية ، والحكمة المتبادلة بين الفرسان بعضهم وبعض ، تحض على مجاملة الأسرى ، والاعتدال فيما يطلب من الفداء ، وكان من المعتاد أن يطلق سراح الأسير إذا وعد بشرفه أن يعود ومعه فديته قبل وقت معين ، وقبلها كان فارس يحنث في هذا الوعد (٦٥) . وكان الفلاحون هم الذين قاسوا أشد البلاء في حروب الإقطاع . وكان كل جيش في فرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، يغير على أراضي أتباع عدوه وأرقاء أرضه وينهب بيوتهم ويستولى على كل ما لم يجمع من الماشية في داخل أسواره ، وكان كثيرون من الفلاحين بعد هذه الحروب يجرّون محارثهم ، وهلك الكثيرون منهم جوعاً لقلة ما أنتجته الأرض من الحبوب .

وحاول الملوك والأمراء أن يحتفظوا بالسلم الداخلية في فترات بين الحروب ، ونجح في هذه المحاولات الأدواق النورمنديون في نورماندية ، وإنجلترا ، وصقلية ، وكونت فلاندرز في بلاده ، وكونت برشاونة في قطلونية ، ونجح هنري الثالث مدى جيل من الزمان في ألمانيا ، وفيما عدا هؤلاء كانت الكنيسة صاحبة الفضل في تقييد الحروب ، فقد أصدرت عدة مجالس كنسية في فرنسا بين عامي ٩٨٩ و ١٠٥٠ قراراً بتحديد « سلم إلهية » وأنذرت كل من يستخدم العنف في الحرب مع غير المقاتلين بالحرمان من حظيرة الدين . ونظمت الكنيسة الفرنسية حركة تدعو إلى السلام في عدة مراكز مختلفة ، وأقنعت كثيرين من الأشراف بأن يمتنعوا عن الحروب الخاصة بين بعضهم وبعض ، ثم لم تكثف بهذا بل أقنعتهم فوق ذلك أن يشتركوا معها في تحريمها ، وقام فلبرت أسقف تشارتر Fulbert of Chartres (؟ ٩٦٠ - ١٠٢٨) يحمّد الله في ترنيمة ذائعة الصيت لوجود فترة من السلام غير عادية . ورحبت الجماهير ترحيباً حماسياً بهذه الحركة ، وأخذ الصالحون يتنبأون بأنه لن تمضي خمس سنين حتى يكون جميع سكان العالم

المسيحي قد وافقوا على برنامج السلام (٦٦) ، وأعلنت مجالس الكنيسة الفرنسية من عام ١٠٢٧ وما بعدها « هدنة الله » ، ولعلها في هذا كانت تذكراً تحريم المسلمين للحرب في الأشهر الحرم فقالت : على الناس جميعاً أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير ، وفي موسم الحصاد وقطف الكروم ( من ١٥ أغسطس إلى ١١ نوفمبر ) ؛ وفي أعياد محددة ، وفي جزء من كل أسبوع - كان عادة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ؛ وأجازت هذه الهدنة في صورتها النهائية قيام الحروب الخاصة أو الحروب الإقطاعية ثمانين يوماً في السنة . وقد أثمرت هذه النداءات والإنذارات ثمرتها ، فقضى على الحروب الخاصة شيئاً فشيئاً بتعاون الكنيسة ، وبقوة الملوك المتزايدة ، ونشأة المدن والطبقات الوسطى ، واستنفاد النشاط العسكري في الحروب الصليبية ؛ وأضحت هدنة الله في القرن الثاني عشر جزءاً من القانون المدني والقانون الكنسي في أوروبا الغربية ، وحرّم مجلس لاتران الثاني ( ١١٣٩ ) استخدام العدد الحربية ضد الناس (٦٧) ، واقترح جر هوو الريخزبرجي Gerhoh of Reichersburg أن يحرم البابا جميع الحروب بين المسيحيين بعضهم وبعض ، وأن يُعرض كل ما يشجر من النزاع بين الحكام المسيحيين على التحكيم البابوي (٦٨) . ورأى الملوك أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ هذا الاقتراح ، فكانوا يشيرون الحروب القومية أكثر من ذي قبل كلما نقصت الحروب الفردية ، وكان البابوات أنفسهم في القرن الثالث عشر ، وهم يحركون البيادق البشرية ليظفروا بالسلطان ، كان هؤلاء البابوات يستخدمون الحرب أداة من أدوات السياسة .

## الفصل الخامس

### الفروسية

من العادات الألمانية القديمة عادات التعليم العسكرى ، بعد أن تأثرت بأساليب المسلمين فى بلاد الفرس ، والشام ، والأندلس وبالأفكار المسيحية المتصلة بالخشوع والأسرار المقدسة ، من هذه كلها نشأ نظام الفروسية ، وهو نظام لم يبلغ حد الكمال ولكنه نظام نبيل كريم .

كان الفارس شخصاً شريف المولد - أى ينتمى إلى أسرة تحمل لقباً شريفاً وتمتلك أرضاً . ولم يكن من حق جميع أصحاب « الأصول » ( أى الذين يمتازون بانتسابهم إلى أسر نبيلة ) أن يختاروا فرساناً أو يحملوا هذا اللقب ؛ فالأبناء غير الابن الأكبر - عدا أبناء الملوك - لم يكن لهم فى العادة إلا أملاك قليلة لا تفى بالنفقات التى تتطلبها الفروسية ، ولهذا يبقى هؤلاء ضمن الأتباع . إلا إذا حصلوا بجهودهم على أراضى وألقاب جديدة .

وكان الشاب الذى يتطلع إلى أن يكون فارساً يخضع لنظام تأديبى شاق طويل . فكان يعمل وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره وصيفاً عند أحد السادة ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة أو الرابعة عشرة أصبح تابعاً لهذا السيد ، يقوم بخدمته على مائدة الطعام ، وفى غرفة نومه ، وفى قصر الضيعة ، وفى المناقفة أو القتال ، ويقوى جسمه وروحه بالتمارين والألعاب الشاقة الخطرة ، ويتعلم بالتقليد والتجربة كيف يستخدم أسلحة الحرب الإقطاعية . فإذا أتم تدريبه سلك فى نظام الفرسان فى حفل يشمل مراسم رهيبة يبدوها الطالب بالاستحمام بوصفه رمزاً للتطهير الروحى ولعله كان أيضاً رمزاً للتطهير الجسمى . وكان لهذا يمكن أن يسمى « فارس الحمام » تمييزاً له من « فرسان السيف » الذين تلقوا لقب الفروسية فى ميدان

القتال جزاء عاجلاً لهم على بسالتهم . وكان يرتدى في هذا الاحتفال قميصاً أبيض ، من فوقه رداء أحمر ومعطف أسود ، يمثل أولها ما يرجى أن يتصف به من نقاء الخلق ، وثانيهما الدم الذي قد يسفكه في سبيل الشرف أو سبيل الله ، وثالثها الموت الذي يجب أن يكون متأهباً لملاقاته بلا وجل . وكان يصوم يوماً كاملاً ثم يقضى ليلة يصلى في الكنيسة ، ويعترف بذنوبه إلى أحد القسيسين ، ثم يحضر مراسم القداس ، ويأخذ العشاء الرباني ، ويستمع إلى موعظة عن واجبات الفارس الخلقية ، والدينية ، والاجتماعية ، والحربية ، ويتعهد في خشوع أن يؤديها كلها . فإذا فعل هذا تقدم إلى المذبح ومعه سيف يتدلى من عنقه ، ويرفع القوس السيف ويباركه ويضعه مرة أخرى فوق عنقه ، ثم يلتفت الطالب إلى الشريف الجالس الذي يريد أن يتلقى منه لقب الفروسة ، فيسأله هذا السيد ذلك السؤال الصارم : « لأى غرض تريد أن تنضم إلى هذا النظام ؟ إن كنت تبغى المال ، أو الراحة ، أو الشرف ، دون أن تعمل ما يشرف الفروسية ، فأنت غير خليق بها ، وستكون منزلتك في نظام الفروسية كمنزلة القوس المتاجر بالرتب الكهنوتية في الأسقفية . ويكون الطالب وقتئذ متأهباً لأن يجيبه برد يؤكد له استعدادة للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية . وحينئذ يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وفي ذراعيه ، وقفازين من زرد في يديه ، ومهمازين في حذاءيه(\*) . ثم يقوم الشريف ويلطمه ثلاث لطمات بعرض السيف على عنقه أو كتفه ، وقد يلطمه لكمة أخرى على خده ، وهى كلها رموز لآخر الإهانات التى يستطيع أن يتلقاها دون أن يثار لنفسه ، ثم يمنح رتبة الفروسية بهذه الصيغة : باسم الله ، والقديس ميخائيل ، والقديس جورج أجعلك

(\*) وكان المهمازان المصنوعان من الذهب هما علامة الفارس ، والمصنوعان من الفضة علامة تابعه ، وإذ قيل عن إنسان إنه « كسب مهمازيه » (الذهبيين) كان معنى هذا أنه باع رتبة الفروسية .

فارساً». ثم يتسلم الفارس الحديد حربة ، ونحوذة ، وجواداً ، فيحكم نحوذته على رأسه ، ويقفز فوق جواده ، ويهز حربته ، ويلوح بسيفه ، ويخرج من الكنيسة راكباً ، ويوزع الهدايا على خدمه ، ويولم وليمة لأصدقائه .

وكان من حتموقه وامتيازاته وقتئذ أن يخاطر بحياته في البرجاس الذى يتدرب فيه أكثر من ندى قبل على المهارة ، والجد ، والجرأة . وكانت بداية البرجاس فى القرن العاشر ، وكان أكثر ما ازدهر فى فرنسا ، وهو الذى سما ببعض العواطف الثائرة وضروب النشاط التى أفسدت حياة رجال الإقطاع . وقد يدعو إليه الملك أو شريف عظيم على لسان مناد للاحتفال بتنصيب فارس ، أو زيارة ملوك ، أو زواج فرد من أفراد الأسرة المالكة . وكان النرسان الذين يرغبون فى الاشتراك فى البرجاس يأتون إلى البلدة التى سيعقد فيها ، ويعلقون أسلحتهم خارج نوافذ حجراتهم ، ويثبتون دروعهم فى جدران الحصون ، والأديرة ، وغيرها من الأماكن العامة . وكان النظارة يبحثون هذه كلها ، وكان لهم أن يتقدموا بما لديهم من الشكاوى الخاصة بما أخطأ فيه كل متقدم للاشتراك فى اللعب ، فيستمع موظفو البرجاس إلى القضية ويحكمون بعدم أهلية المندب من المتقدمين ، وفى هذه الحالة تكون « على ترسه أو درعه لطخة » . ويفقد إلى هذا الجمع الحاشد المتحفز تجار الخيول ليعدوا الفارس للبرجاس ، وبائعو الخردوات ليحلوه هو وجواده بالحلال الجميلة ، والمرابون لافتداء من يسقطون فى الحلبة ، والعرافون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والممثلون الصامتون ، والشعراء الجائلون والمغنون ، والعلماء المتنقلون ، والنساء الخليعات ، والسيدات ذوات المقام السامى . وكان الحادث كله احتفالاً بهيجاً فيه الغناء والرقص ، ومواعيد اللقاء ، والمشاجرات ، والمراهنات التى لا حد لها على المباريات .

وقد يدوم البرجاس إلى ما يقرب من أسبوع ، وقد لا يدوم إلا يوماً واحداً . وقد قسمت الأيام فى برجاس عقد فى عام ١٢٨٥ ، فكان يوم الأحد يوم اجتماع

وعيد ، ونخصص يوماً الاثنين والثلاثاء للمثاقفة ، ويوم الأربعاء للراحة ، ويوم الخميس للبرجاس نفسه الذي أطلق اسمه على الحفل بوجه عام . وكانت حلبة الصراع ميدان بلدة أو فضاء في أحد أطرافها تحيط به من بعض نواحيه مقاعد وشرفات يشاهد منها السراة الحفل وهم مرتدون أفخر ما كان في العصور الوسطى من حلل . أما السوق فكانوا يشاهدون الألعاب وهم وقوف حول الحلبة ، وكانت المقاعد تزدان بالنسيج المزركش ، والبيارق المستطيلة ، والدروع المنقوش عليها شارات الأسر الشريفة . وكان الموسيقيون يبدأون المباريات بالأنغام الموسيقية ، ويحيون بالنغمات العالية أبرع ما في السباق من ضربات . وكان النبلاء والنبيلات ينثرون النقود على السوق الواقفين في الميدان ، فكان هؤلاء يتلقفونها وهم يصيحون « هبات ! » و « مرحي ! » .

ويدخل الفرسان قبل المباراة الأولى حلبة البرجاس فيمشون إلى الميدان في حلهم وعددهم الفاخرة متباهين في خطاهم ، ومن ورائهم أتباعهم على ظهور الجياد تقودها في بعض الأحيان بسلاسل من الفضة أو الذهب السيدات اللاتي سيحارب الفرسان تمجيداً لهن . وكانت العادة المألوفة أن يحمل كل فارس ترسه ، وخوذته أو حربته ، ولقاعة أو قناعاً ، أو دثاراً ، أو شريطاً انتزعتة السيدة المختارة من ثيابها .

وكانت المثاقفة معركة فردية بين فارسين يتباريان . وكانا يعدوان بجواديهما متقابلين ويرمي كلاهما الآخر بحربته المصنوعة من الصلب . فإذا ما اضطر أحد المتبارين أن ينزل عن جواده فإن قواعد المباراة تتطلب أن يترجل الآخر ، وبهذا تدور المعركة بينهما راجلين وتستمر حتى يصبح أحدهما طالباً وقف القتال أو يضطر إلى الخروج منه لأنه تعب ، أو جرح ، أو مات ، أو حتى يطلب القضاة أو الملك وقفه . ثم يمثل المنتصر أمام القضاة ، ويتلقى في وقار جم جائزة منهم أو من سيدة جميلة . وكانت تشغل عدة أدوار من هذا النوع اليوم كله . وكان الحفل ينتهي باقتتال حقو يصطف فيه الفرسان المتبارون جماعات متقابلة ويقتتلون اقتتالاً حقيقياً ،

وإن كان يدور في العادة بأسلحة مثلثة ؛ وقد أدى قتال من هذا النوع دار في نيوس Neuss ( ١٢٤٠ ) إلى موت نحو ستين فارساً ؛ وفي أمثال هذه المباريات كان يؤسّر البعض ، وتؤخذ الفدية ممن يؤسرون كما يحدث في الحروب الحقيقية سواء بسواء . وكانت جياد الأسرى وأسلحتهم غنيمة للمتصرين ، فقد كان الفرسان يحبون المال أكثر مما يحبون القتال نفسه ؛ وقد ورد في مجموعة الأقاويص الفرنسية التي كتبت في فرنسا بين منتصف القرن الثاني عشر وآخر القرن الثالث عشر (\*) أن أحد الفرسان احتج على تحريم الكنيسة لألعاب البرجاس وقال إن هذا التحريم إذا نفذ حرّمه من الوسيلة الوحيدة التي يكسب بها عيشه (٦٩) . فإذا انتهت جميع المباريات اجتمع الأحياء من الفرسان والنبلاء من النظارة في حفل ليلى تعد فيه الولائم ، ويدور فيه الرقص والغناء ، ويستمتع فيه الفرسان الظافرون بتقبيل أجمل النساء ، ويستمتع الحاضرون إلى القصائد والأغاني التي تؤلف تخليداً لانتصارهم .

وكان يطلب إلى الفارس من الوجهة النظرية أن يكون بطلاً ، وسميداً (\*\*\*) ، وقديساً ، وإذا كانت الكنيسة حريصة على ترويض الشرسين من الفرسان ، فقد أحاطت بنظام الفروسية بمراسم وأيمان دينية . فقد كان الفارس يقسم أن يكون صادقاً في القول ، وأن يدافع عن الدين ، ويحمي الفقراء والمساكين ، وينشر لواء السلم في ولايته ، ويقاوم الكفرة . وكان مديناً لسيد الإقطاعي بولاء يرتبط به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ؛ ويتعهد أن يكون حارساً للنساء ، مدافعاً عن عفتهم ؛ وأن يكون أخاً لجميع الفرسان يباد لهم المجاملة وضرور المساعدة . وقد

---

(\*) هي المعروفة باسم Fabliox ويبلغ عددها نحو مائة قصة معظمها تهكمي . ( المترجم )

(\*\*) ورد في القاموس المحيط للفيروزبادي : السميذع : السيد ، الكريم ، الشريف ،

السخي ، الموطأ الأكناف ، والشجاع . ولعل هذه أقرب ترجمة لكلمة gentleman وقد

وردت في بعض أعمار المعتمد . ( المترجم )

يحدث في إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان ، فإذا أسر واحداً منهم عامله معاملة الضيف . وهكذا كان الفرسان الفرنسيون الذين أسروا في كريسي Crécy وپواتيه يعيشون أحراراً مستمتعين بالراحة والاطمئنان في ضياع من أسروهم من الفرسان الإنجليز ، يشتركون مع مضيفهم في الولائم والألعاب ؛ وظلوا كذلك حتى افتدوا (٧٠) . ورفع الإقطاع الشرف الأرستقراطي ومطالب النبيل عند الفارس إلى منزلة عالية علواً لا يستطيع أن يدركه ضمير السوقة - فكان يقسم ألا يتخلى عن البسالة الحربية والوفاء الإقطاعي ، وأن يضع نفسه إلى أقصى حد في خدمة جميع الفرسان ، وجميع النساء ، وجميع الضعفاء والفقراء . وهكذا عادت الرجولة Virtus إلى معناها الذي كان لها عند الرومان بعد أن ظلت المسيحية ألف عام تؤكّد الفضائل النسائية ؛ وبهذا كانت الفروسية ، رغم هالتها المسيحية ، انتصاراً للأفكار الألمانية ، والوثنية ، والعربية على المبادئ المسيحية ، ولقد كانت أوروبا التي توالى عليها الهجمات من كل ناحية في ميس الحاجة إلى الروح الحربية مرة أخرى .

على أن هذا كله كان هو الفروسية من الوجهة النظرية ؛ وكان عدد قليل من الفرسان يستمسكون به في حياتهم ، كما كان عدد قليل من المسيحيين يسمون إلى المستوى الرفيع الشاق من إنكار الذات . ولكن الطبيعة البشرية التي ولدت بين الغابات والوحوش قد اوثت هذا المثل الأعلى وذلك ، فهذا البطل الذي قاتل يوماً ما ببسالة في ألعاب البرجاس أو في ميدان القتال قد يكون في يوم آخر سفاحاً غادراً ؛ وقد يفخر بشرفه كما يفخر بالريشة التي في خوذته ، ويفعل ما فعله لانسلو Lancelot ، وترسترام Tristram ، وغيرهما ممن هم أكثر تأصلاً في الفروسية فيحطم بالزنى الأسر الطيبة . وقد يتشدد بحماية الضعفاء ، ثم يقتل الفلاحين العزل بحد السيف ؛ وكان يعامل العامل اليدوي الذي يعتمد عليه حصنه ومجده معاملة ملوؤها الازدراء ، كما يعامل الزوجة التي أقسم أن يعزها ويحميها بغلظة

في كثير من الأحيان وبوحشية في بعضها (٧١) . وقد يستمع إلى الصلاة في الصباح ، ويسطو على كنيسة في آخر النهار ، ويشرب حتى يفقد وعيه في المساء . وهذا ما وصف به جلداس Gildas الفرسان البريطانيين الذين كان يعيش بينهم في القرن السادس ، وهو القرن الذي يرى بعض الشعراء أن آرثر Arthur « والطبقة العظيمة من فرسان المائة المستديرة » كانوا يعبثون في خلاله (٧٢) . وكان الفارس يتحدث عن الولاء والعدالة ولكنه يملأ صفحات فرواسار Froissart بالغدر والعنف . وبينما كان الشعراء الألمان يتغنون بالفروسية ، تراهم لا ينقطعون عن اللكمات ، وإحراق الدور ، وقطع الطريق على المسافرين البيرينين (٧٣) . ولقد دهش المسلمون من فظافة الصليبيين وقسوتهم ، وحتى بوهمند Bohemund العظيم نفسه ، لما أراد أن يظهر احتقاره لإمبراطور الروم ، بعث له ببضاعة من الأنوف والإبهامات المقطعة (٧٤) . لقد كان هؤلاء شواذ ولكنهم كانوا كثيرين . ولسنا ننكر أن من السخف أن نتظر من الجنود أن يكونوا قديسين ، ذلك أن إجادة التقتيل تتطلب فضائلها الفذة ، وهؤلاء الفرسان الغلاظ هم الذين طردوا الصقالبة من ضفاف نهر الأودر ، والمجر من إيطاليا وألمانيا ، وهم الذين روضوا أهل الشمال فكانوا هم النورمان ، وجاءوا بالحضارة الفرنسية إلى إنجلترا على سفار السيوف ، فكانوا ما لا بد أن يكونوا .

وكان ثمة عاملان هما اللذان خففا من همجية الفروسية ، ونعني بهما النساء والسيحية ، فأما المسيحية فقد أفلحت إلى حد ما في تحويل تيار الخصام في الفروسية إلى الحروب الصليبية ، ولعلها استمدت العون في هذا التحويل من عبادة مريم العذراء أم المسيح ، فقد رفعت هذه العبادة منزلة الفضائل النسائية فخفضت بذلك من حدة تمس الرجال الأشداء الميالين إلى العنف . ولكن لعل النساء اللائي يعشن على ظهر الأرض ، واللائي لهن تأثير كبير في الحواس وفي الأرواح ، قد كان لهن أثر أكبر من أثر مريم العذراء في تحويل الفارس المحارب إلى سيد كريم

الأخلاق . وكثيراً ما حرمت الكنيسة ألعاب البرجاس ، ولكن الفرسان كانوا يغفلون أوامرهم ويظهرون ابتهاجهم بهذا الإغفال ، وكانت النساء يحضرنه ، ولم يكن الفرسان يتجاهلون وجودهن ؛ وكانت الكنيسة غير راضية عن الدور الذى تضطلع به النساء فى حفلات البرجاس وفى الشعر ، وقام الصراع بين أخلاق السيدات النبيلات وبين التعاليم الأخلاقية التى تدعو إليها الكنيسة ، وانتصرت السيدات وانتصر الشعراء فى صراع عالم الإقطاع .

لقد وجد الحب العذرى ، الحب الذى يجعل من المحبوب مثلاً أعلى ، فى كل عصر من العصور على الأرجح ، وكان فى شدته يتناسب إلى حد ما مع ما يوضع من العقبات وما يمضى من الزمن بين الشهوة وإشباعها . وقلما كان هذا الحب من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر سبب الزواج ، وإذا ما وجدنا هذا الحب منفصلاً كل الانفصال عن الزواج فى عصر ازدهار الفروسية ، وجب علينا أن نعد هذه الحال أقرب إلى الطبيعة وإلى الأحوال السوية من أحوالنا الحاضرة . لقد كانت النساء فى معظم العصور ، وبخاصة فى عصر الإقطاع ، يتزوجن الرجال لما لديهم من مال ، ويعجبن بغير أزواجهن لما يتمتعون به من سحر وجمال . وكان الشعراء لفقرهم يتزوجون من الطبقات الدنيا ويحبون من طبقات بعيدة المنال ، ويتوجهون بأجمل أغانيهم إلى السيدات اللاتى لا يرجون أن يصلوا إليهن . وكان الفارق بين الحب وحبيبه فى العادة كبيراً إلى درجة يرى معها الناس أن أحفل الشعر بالعواطف الحياشة لا يعدو أن يكون تحية ظريفة للمحبيب . وكان السيد الإقطاعى المهذب يكافئ الشعراء الذين يتشبهون بزوجته ؛ وشاهد ذلك أن الفيكونت فو Vaux ظل يستضيف الشاعر پير فيدال Peire Vidal بعد أن تغزل پير بامرأته — بل بعد أن حاول أن يغويها (٧٥) — وإن كانت هذه درجة من المجاملة لا يضح للشعراء عادة أن يجروا عليها . وكان الشاعر الحب يرى أن الزواج ، إذ يتيح أكبر فرصة للمتعة بأقل قدر من الإغراء ، قلما يوجد الحب

العذرى أو يستبتيه بعد أن يوجد ؛ ويبدو أن دانتى التتى نفسه لم يحلم قط بأن يقرض الشعر الغزلى فى زوجته ، ولم يجد ما يعيبه فى التغزل بغيرها من النساء المتزوجات منهن وغير المتزوجات . وكان الفارس يرى ما يراه الشاعر من أن حب الفارس يجب أن تختص به سيدة أخرى غير زوجته ، وكانت هذه السيدة عادة زوجة فارس آخر (٧٦) . وكان معظم الفرسان يسخرون من هذا الحب العذرى ، ويعودون بعد وقت ما إلى أزواجهم ، ويسلون أنفسهم بالحروب . وقد نسمع عن فرسان يصمون آذانهم عن نداء النساء اللاتى يعرضن عليهم حبن العذرى (٧٧) . ولقد مات رولان Roland ، كما تحدثنا الأغنية Chanson وهو لا يكاد يفكر فى خطيبته أود Aude التى كادت تموت من الحزن حين جاءها خبر وفاته . كذلك لم يكن حب النساء كله حبا عذريا ؛ ولكن جرى العرف الذى كان متبعاً عند الكثيرات منهن أن يكون للسيدة حبيب ، أفلاطونى أو بيرونى (\*) Byronic ، مضافا إلى زوجها . وإذا جاز لنا أن نصدق روايات الحب التى كتبت فى العصور الوسطى قلنا إن الفارس كان يقسم بأن يقوم بخدمة السيدة التى أعطته لونها (\*\*\*) ليلبسه أو بأداء الواجب الذى يفرضه عليه حبا . وكان لها أن تفرض عليه مغامرات خطيرة لتمتحن حبه أو لتبعده عنها ؛ وإذا ما قام بخدمتها على الوجه الأكمل كان المنتظر منها أن تكافئه على خدمته بعناق أو بما هو خير عنده من العناق ؛ ذلك هو «الجزاء» الذى كان يطلبه . وكان يوجه إليها كل ما يقوم به من أعمال حربية مجيدة ، وكان اسمها هو الذى يناديه فى ساعات القتال الحرجة ، أو حين يلفظ آخر أنفاسه . وتلك حالة أخرى من الحالات التى لم يكن فيها الإقطاع جزءا من المسيحية ، بل كان نقيضها ومنافسها . ذلك أن النساء اللاتى كن من الوجهة

---

(\*) الحب الأفلاطونى معروف أما الحب البيرونى فنسبة إلى الشاعر الإنجليزى بيرون صاحب الحب الشهوانى الذى لم يكن يستحى منه ، وكان يقول إنه إنما يفعل جهرة ما يفعله غيره فى الخفاء . ( المترجم )

(\*\*) أى الشارة ذات اللون الخاص بها . ( المترجم )

النظرية مقيدات في جهن بقيود شديدة ، قد أكدن بهذه الطريقة حقهن في الحرية ، وشكلن بأنفسهن قانونهن الأخلاقي . وأخذت عبادة المرأة الشهوانية تنافس عبادة مريم العذراء الروحية ؛ ونودي بالحب على أنه أساس مستقل تقدر به قيم الناس ، وأوجد مثلاً علياً لأداء الخدمات لهم ، وقواعد للسلوك ، وكان فيه تجاهل للدين معيب حتى في الوقت الذي كان يأخذ عنه مصطلحاته وصوره .

وقد أثارت هذه التفرقة المعقدة بين الحب والزواج مشاكل كثيرة خاصة بالأخلاق وآداب السلوك . وكان المؤلفون يعالجون هذه المسائل في تلك الأيام ، كما كانوا يعالجونها في أيام أوغد بكل ما يتصف به الأخلاقيون من تدقيق وإتقان : وحدث في وقت ما بين عامي ١١٧٤ و ١١٨٢ أن ألف رجل يدعى أندرياس كيلانوس Andreas Capellanus أي القس أندرو - رسالة في الحب ودوائه Tractatus de amore et de amoris remedio أورد فيها بين ما أورد من المسائل قانون الحب العذري ومبادئه . ويقصر أندرو هذا الحب على الأشراف ، ويقول بلا حياء إنه هو هيام فارس هياماً محرماً بروجة فارس آخر ، ولكنه يذكر أن خواص هذا الحب هي الولاء والتبعية ، وخدمة الرجل للمرأة . وهذا الكتاب هو أهم المراجع التي يستشهد بها على وجود « محاكم الحب » التي كانت السيدات ذوات الألقاب يُستجوبن فيها ويقدمن القرارات الخصة بالحب العذري . وكانت زعيمة السيدات في هذه الإجراءات أيام أندرو ، إذا كان لنا أن نصدق ما يقوله هو عن هذا ، هي الأميرة الشاعرة مارية Marie كونتة شمبانيا ، وكانت زعيمتها قبل وقتها بجيل هي أمها . وأكثر النساء فتنة في المجتمع الإقطاعي هي إليانور Eleanor دوقة أكتين Aquitaine التي كانت في وقت ما ملكة فرنسا ثم ملكة إنجلترا بعدئذ . وكانت هي وأمها قاضيتين ترأسان محكمة الحب في مدينة بواتييه في بعض القضايا (٧٩) وكان أندرو يعرف مارية حق المعرفة ، وكان قساً خاصاً بها ، ويبدو أنه ألف كتابه ليذيع به

نظرياتها وأحكامها في الحب ؛ ومن أقواله فيه إن « الحب يعلم كل إنسان أن يتحلى بكثير من ضروب الأخلاق الفاضلة » ؛ ويؤكد لنا أن أشرف بوابه الغلاط قد انقلبوا بفضل تعاليم مارية مجتمعا من كرائم السيدات وذوى المروءة والشهامة من الرجال .

وتحتوى قصائد شعراء الفروسية الغزلين عدة إشارات إلى محاكم الحب السالفة الذكر التي كانت تقيمها سيدات من الطبقة الراقية - كونيته نربونة Narbonne وكونيته فلاندرز وغيرهما - في پيرفو Pierrefeu وأفنيون Avignon وغيرهما من بلدان فرنسا<sup>(٨٠)</sup> . ويحدثنا المؤرخون أن عشر نساء ، أو أربع عشرة ، أو ستين منهن كن يجلسن للفصل في القضايا التي تعرض عليهن ، ومعظمها يعرضه نساء ، وبعضها يعرضه رجال ؛ وكانت تلك المحاكم تفض المنازعات وتسوى الخلافات ، وتوقع العقاب على من يخرق القانون . وبمقتضى هذا الحق أصدرت مارية الشمبانية Marie of Champagne ( كما يقول أندرو ) في السابع والعشرين من إبريل عام ١١٧٤ فتوى في سؤال وجه إليها يقول فيه صاحبه : « هل يمكن وجود حب حقيقي بين الأشخاص المتزوجين ؟ » فكان جوابها إنه لا يمكن وجوده ، وكانت حجتها في ذلك أن « المحبين يعطون كل شيء بلا مقابل ، ولا يتقيدون فيما يعطون بموجبات الضرورة ؛ أما المتزوجون فإن ما عليهم من واجبات يرغبهم على أن يخضع كل منهم لرغبات زوجته »<sup>(٨١)</sup> . وقد أجمعت محاكم الحب كلها ، كما يقول أندرو ، على واحد وعشرين قانونا من « قوانين الحب » : منها ( ١ ) لا يمكن أن يتخذ الزواج حجة لرفض الحب . . . ( ٣ ) لا يستطيع إنسان أن يحب اثنين في وقت واحد ( ٤ ) لا يمكن أن يظل كل الحب على حال واحدة ، فهو إما أن يزيد وإما أن ينقص ( ٥ ) المنة التي يسديها صاحبها مرغما منة تافهة ( ١١ ) لا يليق بالرجل أن يحب النساء اللاتي لا يجبن إلا بقصد الزواج . . . ( ١٤ ) إن السهولة المفرطة في نيل الحبيب تحقر الحب ، أما الصعاب التي تعرض الحب فإنها . . . ترفع من قدره . . . ( ١٩ ) إذا بدأ الحب يتناقص فسرعان ما يزول ، وقلما يعود . . . ( ٢١ ) يزداد الحب

على الدوام بتأثير الغيرة . . . ( ٢٣ ) الشخص الذى يقع فريسة الحب لا ينام  
إلا قليلا ولا يطعم إلا قليلا ( ٢٦ ) الحب لا يضمن بشىء على حبيبه (٨٢) .

وكانت محاكم الحب هذه أجزاء من ندوات تقيمها نساء طبقة الأشراف ؛  
ولكن رجال هذه الطبقة لم يكونوا يعبأون بها ، وكان الفرسان العشاق  
يضعون لأنفسهم قواعدهم . غير أن الذى لا شك فيه أن ازدياد الثراء  
والتعطل قد أحاط الحب بأخيلة وآداب ومجاملات امتلأت بها قصائد شعراء  
الفروسية الغزليين وقصائد بداية النهضة . وفى ذلك يقول فلانى Villani  
شاعر فلورنس ( ١٢٨٠ ؟ - ١٣٤٨ ) « تكون فى فلورنس فى شهر يونية  
من عام ١٢٨٣ فى عيد القديس يوحنا بينا كانت المدينة سعيدة آمنة . . .  
اتحاد اجتماعى قوامه ألف شخص ، يرتدون كلهم بيض الثياب ، ويطلقون  
على أنفسهم اسم فرامم الحب . وقد نظمت هذه الجماعة سلسلة من  
الألعاب ، والحفلات والرقص ، مع السيدات ؛ فكان الأعيان ورجال  
الطبقة الوسطى يمشون على دقات الطبول وأنغام الموسيقى ، ويقومون الولائم  
فى منتصف النهار وفى الليل . وقد ظلت محكمة الحب هذه قائمة نحو  
شهرين ، وكانت أجمل وأشهر ما أقيم من نوعها فى تسكانيا » (٨٣) .

نشأت الفروسية فى القرن العاشر ، وبلغت ذروتها فى القرن الثالث  
عشر ، وقاست الأمرين من وحشية حرب المائة السنين ، واضمحت  
أشد الاضمحلال من جراء الأحقاد المريرة التى بددت شبل طبقة الأشراف  
الإنجليز فى حروب الوردتين ، ثم لفظت آخر أنفاسها فى وسط الأحقاد  
التي أثارها الحروب الدينية فى القرن السابع عشر ؛ ولكنها تركت آثارها  
البارزة فى أوروبا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحي  
الاجتماعية ، والتربوية ، والخلقية ، والأدبية ، والفنية ، واللغوية .  
وازداد عدد طبقات الفروسية - ربطة الساق ، والحمام ، والخنزة  
الذهبية - وتضاعفت حتى بلغ عددها ٢٣٤ طبقة منتشرة فى بريطانيا ،  
وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ؛ وجمعت مدارس

كمدارس إيتن Etcn ، وهرو Harrow ، وونشستر Winchester بين  
مثال الفروسية الأعلى والتربية « الحرة » في جهودها الموفقة في تاريخ التربية  
لتثقيف العقل ، وتقوية الإرادة ، وتقويم الأخلاق . وإذ كان الفارس  
يتعلم الآداب ، والشهامة والمروعة ، في حاشية النبيل أو المليك ، فقد كان  
ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية  
الأخرى ؛ وليست المجاملات والبرقة في الوقت الحاضر إلا مزيجاً مخففاً من  
فروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد ازدهر الأدب الأوربي من أغنية  
رولان إلى دن كيشوت ، لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع  
الفروسية ؛ وكان الكشف الثاني لنظام الفروسية من العناصر الفعالة في الحركة  
الأدبية الإبداعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومهما يكن في آداب  
الفروسية الخلقية من إسراف وسخافات ، ومهما كان الفرق كبيراً بين  
حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما ابتدعته الروح  
البشرية من نظم ، وإنها فن من فنون الحياة أبهى وأفخم من كل فن سواه .  
وهكذا نرى أن الصورة التي رسمناها للإقطاع لم تقتصر على أن تكون  
صورة للاسترقاق في الأرض ، وللأمية ، والاستغلال ، والعنف ؛ بل  
كانت تجمع بين هذا كله وبين قدر يعدله من الفلاحين الأقوياء ، يقطعون  
أشجار الغابات ، ومن رجال متباهين أشداء في لغتهم ، وحبهم ،  
وحروبهم ، وفرسان يقسمون بأن يكونوا شرفاء ، خادمين لمن يحتاجون  
إلى خدمتهم ، يجدون في طلب المغامرات وأسباب الشهرة كما يجد غيرهم  
في طلب الراحة والأمن ، يحتقرون الخطر والموت والجحيم ؛ ونساء  
صابرات كادحات ، يلدن ويربين الأبناء في قرى الفلاحين ؛ وسيدات  
من ذوات الحسب والنسب الرفيع يمزجن دعواتهن الرقيقة لمريم العذراء  
بالحرية الجريئة في التغنى بالشعر الشهواني والحب العذري - ولعل  
الفروسية كانت أقوى أثراً من المسيحية في رفع منزلة المرأة . ولقد كان أهم  
ما اضطلع به الإقطاع من أعمال هو إعادة النظام السياسي والاقتصادي إلى أوروبا

يعد أن توالى عليها الغارات والكوارث المخربة المقطعة لأوصالها مائة عام .  
ولقد أفلحت في غرضها هذا ؛ ولما أن اضمحلت قامت على أنقاضها وترائبها  
مدنيتنا الحديثة .

وبعد فليست العصور الوسطى حقبة يحق للعالم أن ينظر إليها بتشامخ  
وازدراء . ذلك أنه لم يعد في وسعه أن يشهر بما كان فيها من جهل  
وخرافات ، وتفكك سياسى ، وفقراقتصادى وثقافى ؛ بل عليه بدلا من  
هذا أن يعجب كيف استطاعت أوروبا أن تفيق من الضربات المتعاقبة التى  
كألها لها القوط ، والهون ، والوندال ، والمسلمون ، والمجر ، والشماليون ،  
واحتفظت فى وسط الاضطراب والمآسى بهذا القدر الكبير من الآداب  
والأساليب الفنية القديمة . ولا يسعه إلا أن يعجب بشارلمان ، وألفريد ،  
وأولاف ، وأتو ، وأمثالهم من الرجال الذين أقاموا من هذه الفوضى نظاماً ؛  
كما يعجب ببندكت ، وجريجورى ، وبنيفاس ، وكولبا ، وألكوين ،  
وبرونو ومن إليهم من الرجال الذين صابروا وصبروا حتى بعثوا الأخلاق  
والآداب من قفار تلك الأيام ؛ وبالمطارنة والصناع الذين استطاعوا أن  
يشيدوا الكنائس الكبرى ، والشعراء المجهولين الذين استطاعوا أن يُغَنِّوْا  
فيما بين كل حرب وحرب ، وإرهاب وإرهاب . وكان لا بد للدولة  
والكنيسة أن تبدأ عملهما مرة أخرى من الدرك الأسفل ، كما بدأ رميولوس  
ونوما قبلهما بألف عام ؛ وكانت الشجاعة التى يتطلبها بناء المدن من  
الغابات ، وخلق المواطنين الصالحين من الهمج ، أعظم من أختها التى شادت  
شارتر ، وأمين ، وريمس فى الزمن الحديث ، أو هدأت حمى دانتي  
الانتقامية فصاغت منها شعراً موزوناً .

## المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجملة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

### CHAPTER XV

1. Abbott, G.F., *Israel in Egypt*, 43.
2. Baron, S., *Social and Religious History of the Jews*, I, 266 ; Gratez, H., *History of the Jews*, II, 566.
3. Socrates, *Ecclesiastical History*, iii; 20; Julian, *Works*, III, 51.
4. Abbott, 45.
5. Ammianus Marcellinus, *Works*, xxiii, 1.
6. Jerome, *Commentary on Isaiah*, vi, 11-13, in Baron, I. 261.
7. Baron, I, 255.
8. Baeder, *Gershom jewisk Spiritual Heroes*, III, 46.
9. Talmud, Yebamoth, 37b.
10. Friedländer, L., *Raman Life and Manners under the Early Empire*, III, 173.
11. Gregory of Tours *History, of the Franks*, 1916, viii, 1.
12. References to the Mishna will be by tractate, chapter, and section; to the (Babylonian) Gemara by tractate and folio sheet.
13. Baba Kama, 60b.
14. Megilla, 16b.
15. Tanhuma, ed. Buber, Yitro. sect. 7, in Moore, G. F., *Judiasm in the First Centuries of the Christian Era*, II, 242.
16. Meuachoth, 99b.
17. Pesikta Rabbati, 10, 4. in Newman, L., and Spitz, S., *Talmudic Anthology*. 300.
18. Chagiga, 10a.
19. Examples in Moore, I, 259.
20. Berachoth. 6b.
21. Aboda Zara, 3b; Newman, 31.
22. Chagiga, 3b.
23. Succah, 52b.
24. Barachoth, 6a.
25. Aboda Zara, 3b.
26. Mechilta, 65a, on Exod. xix, 18.
27. From Deut. vi, 4.
28. Shebouth, 77b.
29. Erubin, 18a.
30. Bereshit Rabbah on Gen. xxiii, 9.
31. Berachoth, 6a
32. Aboda Zara, 5a.
33. Sifre on Deut. 32.
34. Shebuoth, 55a.
35. Midrash Mishle, 28, in Newman,
36. Genesis Rabbah, xlvi, 8.
37. Babo Metzia, 58b.
38. Berochoth, 34a.
39. Ketuboth, 111a.
40. Wayyikra Rabbah, 34. in Newman, 108.

41. Bereshit Rabbah, 44,1, in Newman, 292.
42. Quoted in Cohen, A., *Everyman's Talmud*, 89.
43. Aboda Zara, 20b.
44. Kiddushin, 66d.
45. Shebuoth, 41a.
46. In Cohen, A., 258.
47. Leviticus xxi, 2-5.
48. Yebamoth, 48b.
49. Ketuboth, 27 : Cohen, A., 257.
50. Pesachim, 113a.
51. Shebuoth, 152.
52. Pesachim, 49b.
53. Exod. xxiii, 19 ; xxiv, 26 ; Deut xiv, 21.
54. Nidda, 17.
55. Yoma, 75.
56. Shebuoth, 33.
57. Ibid., 152a.
58. Baba Bathra, 58b.
59. Pesachim, 109a.
60. Berachoth, 55a, 60b.
61. Taanith, 11a.
62. Pesachim, 108.
63. Exod. xii, 13.
64. Megilla on Esther, 7b, in Moore, II, 51.
65. In Oesterley, W.O., and Box, G. H., *Short Survey of the Literature of Rabbinical and Medieval Judaism*, 149.
66. Kiddushin, 31a ; Isaiah vi, 8.
67. Baba Bathra, 8b ; Baron, I, 277-8.
68. Berachoth, 10a.
69. Gen. i, 28 ; Kiddushin, 29.
70. Genesis Rabbah, lxxi, 6.
71. Yebamoth, 12b ; Himes, N. E., *Medical History of Contraception*, 72.
72. Baba Bathra, 72.
73. Exodus Rabbah, i, 1.
74. Harris, M. H., ed., *Hebraic Literature : Translation from the Talmud, Midrashim, and Kabbala*, 336.
75. Baba Bathra, 9a.
76. Ketuboth, 50a, 67.
77. Taanith, 22.
78. Ibid., 20b.
79. Graetz., II, 486, 545.
80. Baba Bathra, 9.
81. Gittin, 70a.
82. Chagiga, 16a.
83. Berachoth, 61a.
84. Kiddushin, 29b.
85. Sota. 44a
86. Taanith, Iv, 8.
87. Yebamoth, 63a.
88. Ibid., 65a, 44a.
89. Pesikta Rabbati, 25, 2, in Newman, 3.
90. Berachoth, xxiv, 1.
91. Kiddushin, 4.
92. Yebamoth, xlv, 1 ; 64b.
93. Gittin, ix, 10.
94. Ketuboth, vii, 6.
95. Cohen, A., 179.
96. Ketuboth, 77a ; Neuman, A. (A., *The Jews in Spain*, Philadelphia, 1942, II, 59.
97. Yebamoth, xxi, in Baeder, III, 66.
98. Gittin, 90b.
99. Kiddushin, 80b.
100. Nidda, 45.
101. Kiddushin, 49d.
102. Yoma. 83b.
103. Mikvaoth, 9b, in Cohen, A., 17
104. Hai Gaon in Newman, 540.
105. Yebamoth, 88.  
Ketuboth 47b.
107. Shebuoth, 30b.
108. Erubin, 41b.
109. Baeder, III, 15.

110. Bereshit Rabbah, xvii, 7.
111. Harris, M. H. *Hebraic Literature* 340.
112. Pirke Aboth, iv, 1.
113. Ibid., iv, 3.
114. Ibid., i, 17.
115. Ibid., iii, 17.
116. Shemot Rabbah, xxv, 16 Newman, 897.
117. Menachoth 29b, in Moore, II, 187.
118. Renan, E., *Origins of Christianity: The Christian Church*, 131; Baron, I, 305-6.

#### CHAPTER XVI

1. Graetz, III, 308.
2. Abrahams, *Israel Jewish Life in the Middle Ages*, 219.
3. Benjamin of Tudela, *Travels*, in Komroff, M., ed., *Contemporaries of Marco Polo*, 290.
4. Graetz, III, 90. Others date the Gaonate from 589: cf. Oesterley and Box, 209.
5. Graetz, III, 133.
6. Ibid., 148.
7. Druck, D., *Yehuda Halevy*, 66.
8. Baron, I, 353.
9. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, 35. 42f.
10. Malter, H., *Saadia Gaon*, 279, 291.
11. Benjamin of Tudela, in Komroff 310.
12. Baron, I, 318.
13. Friedländer, III, 181.
14. Dill, Sir S., *Roman Society in Gaul in the Merovingian Age*, 246.
15. Graetz, III, 143, 161, 241, 389.
16. Benj. of Tudela, in Komroff, 260.
17. Ibid., 257.
18. Ameer Ali, Sayed, *The Spirit of Islam*, 260.
19. Druck, 26.
20. Dozy, R., *Spanish Islam*, 597f.
21. Abbott, G. F., 71.
22. Abrahams, *Jewish Life*, 366.
23. Dozy, 721.
24. Graetz, III, 617.
25. Neuman, A., *Jews in Spain*, I, 5.
26. Ibid., 164.
27. Ibid., II, 184.
28. Ibid., II, 221; Graetz, III, 281.
29. Neuman, II, 221.
30. Graetz, III, 360f.
31. Baron II, 37; Graetz, III, 506.
32. Neuman, II, 149.
33. Ibid., 247.
34. Abrahams, *Jewish Life*, 67.
35. Solom Asch in Browne, Lewis, ed., *The Wisdom of Israel*, 698.
36. Baba Kama, 113a.
37. Pirke Aboth, iii, 2.
38. Baron, II, 17.
39. Ibid., 26.
40. Ibid.
41. Bracton, *De Legibus*, vi. 51, in Baron, II, 24.
42. Pollock, F., and Maitland, F.W., *History of English Law before Edward I*, I, 455.
43. *Cambridge Medieval History*, II, 602.
44. Ricard, T.A., *Man and Metals*, II, 602.
45. Abrahams, *Jewish Life*, 241.
46. Rapaport, S., *Tales and Maxims from the Talmud*, 147.
47. Graetz, III, 229.
48. Arnold, Sir, T., and Guillaume, A., *The Legacy of Islam*, 102.
49. Pirenne, H., *Medieval Cities*, 258.
50. Baron, II, 8f.
51. Jewish Encyclopedia, IV, 379.  
Deut. xxiii, 20.
53. Baba Metzig, v, 1-2, 11.
54. Abrahams, *Jewish Life*, 110.

55. Baron, II, 120.
56. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 134.
57. *Cambridge Medieval History*, VII 644.
58. Ibid., 646.
59. Neuman, A., I, 202; Lacroix, P., *Manuers Customs and Dress during. the Middle Ages*, 451.
60. Coulton, G. G., *Medieval Panorama*, 352.
61. Abbott, *Israel*, 113.
62. Lacroix, *Manners*, 451.
63. Ashley, W. J. *Introduction to English Economic History and Theory* 202.
64. Abbott, 177.
65. Pollock and Maitland, 451.
66. *Combridge Medleval Htstory*, VI, 226.
67. Abbott, 122.
68. Hnsik, 508.
69. Abbott, 125; Graetz, III, 583.
70. Abbott, 153; Lacroix, *Manners*, 445.
71. In Foakes-Jacson, F., and Lake, K., *Beginnings of Christianity*, I, 76.
72. Baba Bathra, 90.
73. Baba Metzia, iv. 3.
74. Baron, I, 277-8; II, 108.
75. Barón, II, 99.
76. Moore, II, 174-5.
77. Abrahams, *Jewish Life*, 141, 319, 326, 335; Baron, II, 99.
78. Coulton, *Panorama*, 357.
79. Abrahams, 277.
80. Ibid., 281.
81. Burton, Sir R. F., *The Jew, the Gypsy, and El Islam*, 128; Baron II, 169
82. Abrahams, 331.
83. Baba Kama, 113b.
84. Abrahams, 106.
85. Ibid., 104.
86. Ibid., 90.
87. Baron, II, 112.
88. Abrahams, 166.
89. Kiddusigin, 41a; Neuman, II, 21.
90. Ibid.
91. Moore, II, 22.
92. Abrahams, 117.
94. Burton, *The Jew*, 43.
95. White, F. M., *Woman in World History*, 176.
96. Abrahams, 155.
97. Brittain, A., *Women of Early Christianity*, 10.
98. White, 189.
99. Neuman, II, 229.
100. White, 185.
101. Marcus, J., *The Jew in the Medieval World*, 313.
102. Abrahams, 32.
103. Neuman, II, 153.
104. Baron, I, 288; II, 97.
105. Abrahams, 126.
106. Brittain, 12.
107. Moore, I, 316.
108. Maimondes, *Mishneh Torah*, — Book I, tr. Mořes, Hayamson, 63a.
109. In Waxman, M., *History of Jewish Leterature*, I, 214.
110. *Jewish Encyclopedia*, IX, 122.
111. *Oxford Histor of Music'* introd. volume, 60.
112. *Jewish Encyclopedia*, III, 453.
- 112a. In Zeitlin, S., *Maimonides*, 44'
113. Baron, II, 83.
114. Lacroix, *Munnners*, 439.
115. Baron, II, 35.
116. Abrahams, 411; Moore, II, 74.

117. Dent. vii, 3; Nehemiah xiii, 25.  
 118. Klausner, J., *From Jesus to Paul*, 515.  
 119. Baron, II, 56.  
 120. Gittin. 61.  
 121. Abrahams, 413-4.  
 122. Ibid., 418.  
 123. Ibid., 424; Baron, II, 40.  
 124. Baron, II, 36.  
 125. Abbott, 93.  
 126. Coulton, *Panorama*, 352.  
 127. Ibid.  
 128. Graetz, IV, 33.  
 129. Gregory I, Epistle ii, 6, in Dudden, F. H., *Gregory the Great*, II, 155.  
 130. Ep. xiii, 15, in Dudden, II, 155  
 131. Belloc, H., *Paris*, 170.  
 132. Graetz, III, 421.  
 133. Coulton, *Panorama*, 352.  
 134. Thatcher, O. J., and McNeal, E.H., *Source Book of Medieval History*, 212.  
 135. Lea, H.C., *History of the Inquisition in the Middle Ages*, II, 63.  
 136. Graetz, III, 563.  
 137. Ibid., 583.  
 138. Marcus, 151.  
 139. Baron, II, 85.  
 140. Abbott, 51; Jewish Encyclopedia III, 453.  
 141. *Camb. Med. H.*, VII, 624; Jewish Encyclopedia. IX, 368.  
 142. Graetz, III, 299.  
 143. Ibid., 300.  
 144. Ibid., 301f; *Cambridge Medieval History*, V., 275f; VII, 641.  
 145. Graetz III, 350; Abbot, 88.  
 146. Jewish Encyclopedia. IV, 379.  
 147. Graetz, III, 356.  
 148. *Cambridge Medieval History*, VII, 642.  
 149. Graetz, IV, 35; Jewish Encyclopedia, IX, 358.  
 150. Abbott, 144.  
 151. Coulton, *Panorama*, 359.  
 152. Cuninggham, W., *Growth of English Industry and Commerce* 204.  
 153. Jewish Encyclopedia, IV, 379.  
 154. Lacroix, *Manners*, 447.  
 155. Graetz, III, 642; Abbott, 130.  
 156. Abbott, 131.  
 157. Ibid., 68.  
 158. Lacroix, *Manners*, 447.  
 159. Abbot. 68.  
 160. Montesquieu, C. Baron de, *The Spirit of Laws*, I, xii, 5.  
 161. Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicles*, I, 197.  
 162. Marcus, 24.  
 163. Graetz, III, 570.  
 164. Villehardouin, G. de, *Chronicles of the Crusades*, 148.  
 165. Abbott. 113.  
 166. *Cambridge Medieval History*, VII, 641.

#### CHAPTER XVII

1. Abrahams, *Jewish Life* 210.
2. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, II (i), 295.
3. Abrahams, I., *Chapters on Jewish Literature*, 116.
4. Waxman, I, 226.
5. Graetz, III, 269.
6. Gabirol, S. ibn, *Selected Religious Poems*, tr. Israel Zangwill, 52.
7. Ibid., 30.
8. Abrahams, *Literature*, 109.
9. Abrahams, *Jewish Life*, 163.
10. In Wilson, E, ed. *Hebrew Literature*, 383.
11. Sarton, II, (i), 188.
12. Hafevi, J., *Selected Poems*, tr. Nina Salaman, 58.
13. Abbott, 72.
14. Druck, 97.
15. Ibid., 94.
16. Wilson, *Hebrew Literature*, 365-6.
17. Novella 146 in Burton, *The Jew*, - 105.

18. Graetz, III, 573.
19. Sarton, II (ii), 557.
20. Schechter, S., *Studies in Judaism*, I, 107.
21. Graetz, III, 604.
22. Sarton, II, (i), 145.
23. *N. Y. Times*, June 2, 1937.
24. Sarton, II, (i), 145.
25. Cf. Komroff, M. *The Contemporaries of Marco Polo*.
26. Husik, 24.
27. Munk, S., *Mélanges de philosophie juive et arabe* 153.
28. Marcus, 312.
29. Cf. Gabirol, S. ibn, *Improvement of the Moral Qualities*, tr. Stephen Wise, 4, 27.
30. Gabirol, *Fons Vitae*, i, 3, in Munk, 6.
31. Halevi, J., *Kitab 'al-Khazari*, tr. H. Hirschfeld, i, 116.
32. *Ibid.*, III, 5, 7.
33. Husik, 215.
34. Yellin, D., and Abrahams, I., *Maimonides*, 11; Zeitlin, *Maimonides*, I,
35. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, 427.
36. Zeitlin, *Maimonides*, 5.
37. "Letter of Consolation" in Yellin, 46.
38. Zeitlin, 178.
39. Arnold, Sir T., *Preaching of Islam*, 421.
40. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 290.
41. Maimonides, Aphorisms, in Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, I, 176.
42. Zeitlin, 172.
43. In Baron, *Essays*, 288.
44. Zeitlin, 174.
45. Baron, *Essays*, 284.
46. Maimonides, *Mishneh Trab*, Introd., 4b.
47. Zeitlin, 214.
48. *Mishneh Torab*, Introd., 16. 3a.
49. In Baron, *Essays*, 117.
50. Maimonides, *Guide to the Perplexed* tr. M., Friedländer, II, xli.
51. *Ibid.*, III, 35, Baron, *Essays*, 139.
52. *Guide*, III, xxii, xli; Deut. xxiii, 17; Exod, xxii, 1; xxxi, 15.
53. *Mishneh Torab*, 40b.
54. *Ibid.*, 59a.
55. *Ibid.*, 54a.
56. *Ibid.*, 53a.
57. *Ibid.*, 53ab.
58. *Ibid.*, 52b.,
59. In Baron, *Essays*, 110.
60. Zeitlin, 132.
61. *Guide*, I, Introd.
62. *Ibid.*, II, xix; III, xiv.
63. II, Pt. II, Introd. and Prop xx.
64. *Ibid.*, xxxvi-xli.
65. III, xxii.
66. II, xviii.
67. II, xxx.
68. III, x, xii.
69. III, lxx.
70. Zeitlin, 151.
71. *Ibid.*, 103; Baron, *Essays*, 143.
72. *Guide*, II, Pt. II, Introd.
73. Baron, *Essays*, 119-21; Zeitlin, 209.
74. Marcus, 307-9.
75. Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus*, xv, 4.
76. Roth, L., *Spinoza Descartes, and Maimonides*, 66; Baron, *Essays*, 7.

77. Husik, 302 ; Graetz, IV, 23.
78. Ibid., III, 631.
79. Neuman, A., II, 122.
80. Ibid., 118 ; Graetz, IV, 29-41.
81. Jewish Encyclopedia, III, 457, 479.
82. Sarton, II, (i), 366.
83. Graetz, V, 21.
84. Baron, *History*, II, 136.
85. Ibid., 142.
86. Abrahams, *Jewish Life*, 143, 157, 193.
87. In Marcns, 314.

#### CHAPTER XVIII

1. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 173.
2. Gibbon, IV, 504.
3. *Cambridge Medieval History*, II, 289.
4. Ibid., IV, 6 ; Gibbon, V, 142.
5. In Diehl, *Manuel*, 335.
6. *Cambridge Medieval History*, IV, 115f.
7. Voltaire, *Works*, XIII, 190.
8. Diehl, *Portraits* 159 ; Bury, *Eastern Roman Empire*, 169.
9. McCabe, J., *Empresses of Constantinople*, 174.
10. *Cambridge Medieval History*, IV, 108 ; Diehl, *Portraits*, 264.
11. Boissonnade, P., *Life and Work in Medieval Europe*, 56.
12. *Cambridge Medieval History*, IV, 750.
13. Diehl, *Portraits*, 236.
14. *Cambridge Medieval History*, IV, 745.
15. Komroff, *Contemporaries of Marco Polo*, 266.
16. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
17. Ibid.
18. Clapham and Power, 212.
19. Diehl, *Portraits*, 158 ; Gibbon V, 458 ; Brittain, *Women of Early Christianity*, 318.
20. Lopez, R.S., in *Speculum*, Vol. XX, No.1, pp. 17-18 ; Boissonnade, 46-7 ; *Cambridge Medieval History*, IV, 761.
21. Boissonnade, 50.
22. Ibid., 51.
23. Castiglione, 254.
24. Bury, *Eastern Roman Empire*, 436 ; Grunebaum, *medieval Islam* 54.
25. Psellus *Chronographia*, vi, 46.
26. Ibid., v, 25-37.
27. Diehl, *Manuel*, 405.
28. Luitprand in Grunebaum, 29.
29. Cf. Walker Trust Report, *The Great Palace of the Byzantine Emperors*, plates 24-37 and 57.
30. The judgment of Kondakof in Diehl, *Manuel*, 580.
31. Diehl, 590.
32. Ibid., 381.
33. Finlay, *Greece under the Romans*, 21.
34. Thompson, J.W., *Feudal Germany*, 458.
35. Kluchevsky, V. O. *History of Russia*, I, 46 ; Thompson, *Feudal Germany*, 456.
36. Pokrovsky, M. N., *History of Russia* 11 ; Fustel de Coulanges questioned this - cf. Dopsch, 26.
37. *Cambridge Medieval History*, IV, 136.
38. Navor, J., *Economic History of Russia*, I, 15.
39. Kluchevsky, I, 88.
40. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 84.

#### CHAPTER XIX

1. Paul the Deacon, *History of the Longobards*, i, 9.
2. Munro and Sellery, 538.
3. Dante, *Elleven Letters*, 185.
4. Note by W. D. Foulke in Paul the Deacon, 309.

6. Voltaire, *Works*, XIII, 80.
7. Molmenti, P., *Venice*, I, I, 212-4.
8. *Cambridge Medieval History*, III, 170
9. Pirenne, *Medieval Cities*, 110.
10. Ruskin, *Stones of Venice*, I, 55.
11. Lanciane, R., *Ancient Rome*, 57.
12. *Ibid.*, 275.
13. Castiglione, 301.
14. Dozy, *Spanish Islam*, 440.
15. Coulton, G. G., *Five Centuries of Religion*, I, 174.
16. Hume, M., *The Spanish People*, 129 ; *Spain*, 191 ; *Encyclopedia Britannica*, V., 699.
17. In Guizot, *History of France*, I, 171.
18. *Ibid.*, 168.
19. Pirenne, *Cities*, 243 ; Voltaire, XIII, 131.
20. Freeman, E.A., *Historical Essays*, First Series, 179.
21. *Cambridge Medieval History*, II, 316.
22. Guizot, *France*, I, 229f ; Guizot, *History of Civilization*, II, 193-6.
23. Pollock and Maitland, I, 117 ; Barnes, H.E., *History of Western Civilization*, I, 775.
24. Lea, *Superstition and Force*, 469.
25. Guizot *Civilization*, II, 225f.
26. Capitulary of Charlemagne, year 803, // 3, in Guizot *Civilization*, II, 222.
27. In Pirenne, *Cities*, 166.
28. *Ibid.*, 58 ; *Cambridge Medieval History*, II, 657.
29. *Cambridge Medieval History*, II, 657.
30. Letter of Alcuin in William of Malmesbury, i, 3, p. 66.
31. Eginhard, *Life of Charlemagne*, 61,
32. Hodkin, T., *Charlemagne* 812.
33. West, A. F., *Alcuin*, 55.
34. Eginhard, p. 14.
35. *Ibid.*, 62.
36. *Ibid.*, 64.
37. Capitulary of 802 in Bebel A., *Woman under Socialism*, 60.
38. Eginhard, 33.
39. Bury, *Eastern Empire*, 318,
40. Eginhard, 56-8.
41. Raby, F. J. *History of Secular Latin Poetry in the Middle Ages*, I, 190.
42. Eginhard, 52.
43. *Ibid.*, 48 ; Russell, C. E., *Charlemagne*, 262.
44. Guizot, *France*, I, 241.
45. Morey, C. R., *Medieval Art*, 207.
46. *Ibid.*, 191.
47. Davis *Medieval England*, 266.
48. Guizot, *Civilization*, II, 375.
49. Erigena, J.S. *De divisione naturae*, i, 69.
50. In Guizot, *Civilization*, II, 383.
51. Erigena, // 517.
52. *Ibid.*, // 443
53. // 518.
54. // 896.
55. // 919-26, 937-40.
56. // 861.
57. Poole, R. L., *Illustration of the History of Medieval Thought*, 61.
58. Guizot, *Civilization*, II, 888.
59. William of Malmesbury, ii, 4.
60. Guizot, *France*, I, 303
61. *Ibid.*, 311.
62. *Ibid.*, 329.
63. *Ibid.*, 336.

## CHAPTER XX

1. Asser, *Alfred the Great*, 51.
2. Asser, 66, 78, 85.

3. Alfred, Preface to tr. of Gregory's *Cura pastoralis*, in Ogg, *Source Book of Medieval History*, 191.
4. Voltaire, *Works*, XIII, 176.
5. Boissonnade, *Life and Work in Medieval Europe*, 83.
6. Green, R., *Conquest of England* 135, 329, 359-60.
7. Stubbs, W., *Constitutional History of England*, I, 146, 157.
8. Hume, D., *History of England*, I, 181.
9. Pollock and Maitland, II, 450.
10. William of Malmesbury in Coulton, O.G., *Social Life in Britain* 20; Green, J. R., *Making of England*, 192.
11. Traill, H. D., *Social England*, I, 204.
12. Hume, D., *History of England* I, 188.
13. Briffault, R., *The Mothers*, II, 419.
14. William of Malmesbury, i, 4.
15. *Ibid*, i, 2.
16. *Ibid.*, ii, 5.
17. Bede, v, 24.
18. *Ibid.*, i, 15.
19. *Ibid.*, *Introd.*, xvi.
20. Gordon, R. K., *Anglo - Saxon Poetry*, 81-2.
21. In Ker, W.P., *Epic and Romance*, 63.
22. *Beowulf*, xxxvii and xlili, in Gordon, *Anglo-Saxon Poetry*, 60, 70.
23. Bede, iv, 23.
24. Plummer, *Life and Times of Alfred the Great*, 14.
25. In Addison, J., *Arts and Crafts in the Middle Ages*, 4.
26. Aldhelme (c. 709) in Addison, 199.
27. Bede, iv, 18.
28. Freeman, E.A., *Norman Conquest* II, 298.
29. William of Malmesbury, iii, 238; Ordericus Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, 492A; Freeman, *Norman Conquest*, II, 244.
30. Guizot, *France*, I, 345; Freeman, *Norman Conquest*, III, 320.
31. *Mabinogion*, 1f.
32. Hyde, *Litany History of Ireland* 238.
33. Joyce, *Short History of Ireland*, 39-46.
34. Thompson, J. W., *Economic History*, 148.
35. Boissonnade, 78.
36. Joyce, 80.
37. *Ibid*, 163.
38. *Ibid.*, 155, 158.
39. Hyde, 222.
40. *Ibid.*, 239.
41. *Ibid.*, 279f.
42. Thompson, Sir E. M., *Introd to Greek and Latin Palaeography*, 374.
43. Joyce, 189-92.
44. Keating in Hyde, 488.
45. Horn, F. W., *Literature of the Scandinavian North*, 13, *Cambridge Medieval History*, II, 481.
46. Surluson, S., *Heimskringla*.
47. *Ibid.*, Haakon the Good, ch. 23.
48. *Ibid.*, Olaf Tryggvesson, ch. 7.
49. *Ibid.*, ch. 92.
50. *Ibid.*, ch. 87.
51. *Ibid.*, St. Olaf, ch. 56, 131.
52. *Ibid.*, ch. 74.

53. *Ibid.*, Appendix to Olaf Tryggveson's Saga; *Encyclopedia Britannica*. art. Columbus.
54. *Beomulf*. xxxv.
55. Sturluson, Son of Magnus, ch. 33; Du-Chailly, II, 370 - 379.
56. Saxo Grammaticus, *Danish History*, I, 23.
57. Haskins, *Encyclopedia*, III, 499c.
58. DuChailly, II, 1.
59. Haskins, *Normans in European History*, 36.
60. DuChailly, I, 486.
61. Saxo, 25.
62. Thompson, J. W., *The Middle Ages*, I, 327.
63. Sturluson, Magnus the Good, ch. 16.
64. Sigfusson, Saemud, *The Elder Edda*, 22 - 56.
65. *Ibid.*, 23.
66. 59.
67. 66.
68. 14.
69. 84.
70. 102.
71. 81.
72. 65.
73. 73.
74. 121.
75. 58.
76. 55 - 6.
77. 36.
78. 68.
79. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 41.
80. Faereyinga Saga in Ker, *Epic and Romance*, 236.
81. Sturluson, Olaf Tryggvesson's Saga, ch. 9.
82. Sturluson, Ynglinga Saga, ch. 6 and note; Hodgkin, *Charlemagne* 154; Saxo, 44.
83. Milman, III, 216. Milman persuasively defends the credibility

84. *Cambridge Medieval History*, 270.
85. West, *Alcuin*, 127.
86. Rab, F. J. E. *History of Christian Latin Poetry in the Middle Ages* 188.
87. Welch, Alice K., *Of Six Medieval Women*, 5.
88. Addison, *Arts and Crafts*, 16.

#### CHAPTER XXI

1. *Cambridge Medieval History*, I, 536.
2. In Russell, B., *History of Western Philosophy*, 879.
3. Rule of St. Benedict, ch. 3, in Ogg. 87.
4. Ch. 2.
5. Ch. 53.
6. Dudden, I, 111.
7. In Maitland, S.R., *Dark Ages*, 196 - 8.
8. In Dudden, I, 58.
9. *Ibid.*, 289.
10. Bede, ii, 1.
11. Gregory of Tours, 227.
12. Dudden, I, 215.
13. Thompson, J.W., *Middle Ages*, I, 178.
14. Dudden, II, 156; McCabe, J., *Story of Religious Controversy*. 307.
15. Bede, ii, 1.
16. *Ibid.*, 198.
17. Gregory I, Ep. xiii, 45, in Dudden, I, 278.
18. In Abélard, *Ouvrages inédits, Quaestio*, 1a.
19. Gregory I, *Magna Moralia*, in Dudden, II, 313.
20. *Dialogues*, iv, 7, in Dudden, I, 330.
21. Dudden, II, 484f.
22. *Ibid.*, 38.
23. Thompson, J.W. *Middle Ages*, I, 178.

24. Voltaire, *Works*, XIII, 90.
25. *Cambridge Medieval History*, II, 690.
26. Funk, I, 287; *Cambridge Medieval History*, V, 710.
27. In Milman, III, 25.
28. Gibbon, IV, 82.
29. Sarton, I, 555.
30. Poole, R.L., *Illustration*, 20.
31. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 136.
32. Dudden, I, 86.
33. Ibid.
34. Montalembert, Comte de, *Monks of the West*, I, 553.
35. Guizot, *Civilization*, II, 113 - 9; Toynbee, A.J., *Study of History* II, 331.
36. Waddell, H., *Wandering Scholar* 34.
37. Bede, I, 17.
38. William of Malmesbury, I, 2.
39. Bede, I, 80.
40. Bede, Letter to Egbert.
41. Green, *Making of England*, 413.
42. Gibbon, V, 534.
43. Coulton, *Five Centuries of Religion*, I, 222.
44. Ibid., 852.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 662.
46. Ibid., III, 67.
47. Milman, III, 111.
48. *Cambridge Medieval History*, III, 455.
49. Milman, III, 160; McCabe, *Crises in the History of the papacy*, 128f.
50. Ibid., 181, quoting the *Liber Pontificalis*.
51. Milman, III, 171; *Cambridge Medieval History*, III, 455.
52. Milman, III, 178.
53. Ibid., 185f.
54. Sanders, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 847.
55. Vincent of Beauvais, *Spec. Hist.*, in Milman, III, 221.
56. Thorndik, *Magic and Experimental Science* I, 704.
57. *Cambridge Medieval History*, III, 109.
58. Hulme, E.M. *Middle Ages*, 339; Coulton G.O., *Life in the Middle Ages*, I, 1; Sarton, I, 734.
59. Funk, I, 262.
60. Stephens, W.R. W. *Hildebrand*, 14; Milman, III, 230; McCabe, *Crises*, 140.
61. *Cambridge Medieval History*, 10.
62. Guizot, *France*, I, 160.
63. Porter, A. K. *Medieval Architecture*, II, 2.
64. Ibid.
65. Carlyle R.W., *History of Medieval Political Theory in the West* IV, 52.
66. Coulton, *Five Centuries of Religion*, IV, 187.
67. Coulton, *From St. Francis to Dante*, a tr. of *The Chronicle of Salimbene*, 286.
68. *Cambridge Medieval History* V, 9-10.
69. Catholic Encyclopedia, I, 156
70. *Cambridge Medieval History*, V, 12.
71. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 210.
72. Lecky *Morals*, II, 237.
73. Lea, *History of Auricular Confessions*, I, 46.
74. Letter to Egbert in Bede, p. 4.
75. Catholic Encyclopedia, III, 486.
76. *Cambridge Medieval History*, IV, 268.
77. Ibid., 272.

78. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 194, 223; Thompson, *Social and Economic History*, 662.
79. Lea, *Celibacy*, 226.
80. Bryce, Jas., *Roman Empire*, 158.
81. *Cambridge Medieval History* V, 99.
82. Thompson, *Social and Economic History*, 663.
83. Taylor, *Medieval Mind*, II, 55
84. Letter of Gregory VII to William I of England, 1080, in Bryce, 160.
85. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
86. Figgis, *Political Aspects of St. Augustine's City of God*, 88.
87. Catholic Encyclopedia, X, 871c.
88. Carlyle, R.W., *Medieval Political Theory*, IV, 64.
89. Stephens, *Hildebrand*, 116.
90. Thatcher and McNeal, 159.
91. *Cambridge Medieval History*, V, 74f.
12. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, IIIae, xciv, 5.
13. Decree of Fourth Council of Orléans, in Dopsch, 250.
14. Lecky, *Morals*, II, 70, Sarton, II (ii). 799, but cf. Catholic Encyclopedia, XIV, 38.
15. Ashley. *Introd. to English Economic History*, II, 276.
16. Coulton, *Medieval Village*, 59.
17. Westermarck, E., *Short History of Marriage*, 14; Coulton, *Medieval Village*, 80.
18. Reignobos, 14; Coulton, *Medieval Village*. 464.
19. Bebel, 57.
20. *Cambridge Medieval History*, VII, 721.
21. Coulton, *Life in the Middle Ages*, III, 123-5.
- 21a. *Cambridge Medieval History*. VII. 22.

#### CHAPTER XXII

1. Lot., *End of the Ancient World* 125.
2. Dopsch, 283.
3. Seebohm, F., *English Village Community*, 126f, 179.
4. Seignobos, C., *Feudal Regime*, 34, Barnes, *Economic History*, 139.
5. Clapham and Power, 237-8.
6. Letters, iv, 2.
7. Coulton, G.O., *Medieval Village* 151.
8. McCabe, *Story of Religious Controversy*, 325.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 679.
10. Coulton, *Medieval Village*, 492.
11. Coulton, *Medieval Panorama*, 322
22. Seignobos, 21.
23. Coulton, *Medieval Village*. 65.
24. Cram R.A., *Substance of Gothic* 181.
25. Lynn White. Jr. in *Speculum*. Apr. 1940. p. 151.
26. Taine. H. *Ancient Regime*. 9, Carlyle,
27. Barnes, *Economic History* 145.
28. *Cambridge Medieval History*. VII, 741.
29. Coulton. *Medieval Village* 311-18.
30. *Ibid.*, 21. 243
31. Coulton. *Panorama*. 92.
32. *Speculum*. Apr. 1940.
33. *Ibid.*, 155.
34. Chrteoubriand. Vicomte de, *The Genius of Christianity*. iv. 1. 4
35. Coulton *Medieval Village*, 119.

36. Lacroix. Paul. *Military and Religious Life in the Middle Age*. 156.
37. Hitti. *History of the Arabs*. 663; *Arnold Legacy of Islam* 131.
38. Lacroix. Pahl. *Science and Literature in the Middle Ages*. 299f.
39. Beaumanoir in Seignobos. 55.
40. Coulton. *Panorama*. 50.
41. Voltaire. *Works*. XIII., 131.
42. Thompson. *Feudal Germany*. 301
43. Carlyle. R.W. *Medieval Political Theory*. 463.
44. Pollock and Maitland. II. 242.
45. Maine. Sir H. *Ancient Law*. 185.
46. Coulton *Medieval Village*. 528.
47. Jenks. E. *Law and Politics in the Middle Ages*. 23.
48. Coulton *Medieval Village*. 187.
49. Lea. *Superstition and Force*. 286, 297, 314.
50. Coulton, *Panorama* 379.
51. Lea. *Superstition*. 178.
52. *Ibid.*, 140f, 179.
53. Seignobos. 79.
55. Sumner W.G. *Folkways*. 522.
56. Barnes. *Western Civilization*. I. 798.
57. Seignobos. 81.
58. Coulton. *Medieval Village*. 248.
59. Lacroix. *Military Life*, 49.
60. Davis, W.S. *Life on a Medieval Barony*. 176.
61. Coulton. *From St. Francis to Dante*. 20.
62. Seignobos. 74.
63. Coulton, *Chaucer and His England*. 199.
64. Coulton, *Panorama*. 247.
65. Prestage, F., *Chivalry*. 72.
66. *Speculum*. Apr. 1930. 189.
67. Thorndike, *Magie and Science*. II. 31.
68. Hoover, H., and Gibbons. H.A. *Conditions of a Lasting Peace* 29.
69. Prestage. 75.
70. Coulton. *Panorama*. 239.
71. Traill. I. 379.
72. In Brif'ault. *Mothers*, III. 383.
73. Bebel. 63.
74. Prestage, 9.
75. Rowbotham, 283.
76. Prestage, 89.
77. Davis. *Life on a Medieval Barony* 77.
78. Vossler. K., *Medieval Culture* I. 299; Taylor *Medieval Mind*, II, 562.
79. Miss Amy Kelly in *Speculum*, 1937, 5.
80. Rowbotham, 224, 235.
81. *Ibid.*, 249.
82. *Ibid.*, 245.